د. ثابت الأحمدي

اليمن

الحقائق الخَمس

مكتبة اليمن الإلكترونية

توثيق/

فايز محيي الدين البخاري

اليمــن

الحقائق الخَمس

اليمن

الحقائق الخمس

د. ثابت الأحمدي

القاهرة – طبعة أولى 2023

رقم الإيداع: 7748/ 2023

الترقيم الدولي: 1 - 746- 751 - 977 - 978



روافد للنشر والتوزيع

القاهرة ج. م. ع

+2 01222235071

rwafead@gmail.com

www.rwafead.com

تصميم الغلاف: نور إسلام

د. ثابت الأحمدي

اليمــن

الحقائق الخَمس

استهلال

عظيمة هي اليمن، بتاريخها العريق وجغرافيتها الفسيحة.

في بلدي، يكاد كل حجر فيه ينطقُ بالعظمة والجلال، وبالمقابل تكاد كل حصىً فيه تشهدُ بقزامة قياداتها السياسية التي توالت على حكمها منذ قرون!

قيادة متعاقبة عليه إن نجحت في التاريخ سقطت في الجغرافيا، وإن نجحت في الجغرافيا سقطت في التاريخ، في معادلة طردية، طويلة المدى، لا تزالُ فصولها معتملة إلى اليوم.

في اليمن، القائد الأطول لم يظهر بعد!

شعب عظيم، تنقصُه القيادة الكبيرة، وهذه هي مشكلة اليمن باختصار.

وفي الواقع، لا تشبه كارثة اليمن إلا كارثة العراق!

تحالفَ أعداءُ الداخل مع أعداء الخارج عليه، ناشبين فيه مخالبَ الخيانة والكراهية معا!

اليمن وخمس حقائق:

تاريخية، دينية، جيوسياسية، اجتماعية، سياسية.

هذه الحقائق هي جوهرُ اليمن، كل اليمن، بما لهذه البلاد وعليها، كان علينا أن نعيَها من وقت مبكر، لنعمل بمقتضاها، ولكن!

ولكن ماذا؟!

لن أستدرك، سأترك الإجابة مفتوحة؛ لتفصِّلَها الصفحاتُ التالية، ولتتأملها بصيرةُ القارئ، وكلٌّ على طريقته!

شوطنا فوق احتمال الاحتمال فوق صبر الصبر لكن لا انخذال
نغتلي، نبكي على من سقطوا إنما نمضي لإتمام المَجال
دمُنا يهمي على أوتارنا ونغنّي للأماني بانفعال
مُرّةٌ أحزانُنا، لكنّها يا عذاب الصبر أحزانُ الرجال

تقديم

الكتابة عن اليمن وَعِرةٌ مُلتبسة؛ إذ يحارُ المؤرخ والسياسي والمحلل كيف ومن أين يبدأ؟ ولا يعرف كيف ينتهي؛ لأن اليمن مُوغِلة في التاريخ أكثر مما عُرِف حتى الآن، ولمّا بعد يُكشف من تاريخها العظيم إلا قشور. وهذا الغِنى الحضاري، ربما أحد أسبابه هِبةُ الجغرافيا موقعاً وطبوغرافيا؛ مما خلق تنوعاً في تضاريسها وفي زراعتها وفي مجتمعها وفي ثقافاتهم ولهجاتهم. وموقع اليمن الفريد سمح بالتبادل الثقافي والحضاري مع أفريقيا والهند وأوروبا. كل هذا، على امتداد ألفيات عديدة، أوجد نُظماً سياسية ودولاً وحضارات عظيمة جميعها تركت آثارها في غِنى الشخصية اليمنية وتنوعها إلى اليوم.

لذا يكاد يكون فهم المجتمع والسياسة في اليمن نوعاً من فك الطلاسم وحلّ الأحاجي. ولربما أن مؤلف هذا الكتاب من بين أقدر من تلبّس هذا الهَمْ وخاض غِماره وأبحر بين أمواجِه. وليس كتابه هذا هو الأول من نوعه وفي مجاله، فله الكثير من الكتب والأبحاث حول هذا الأمر. ولطالما أتحفنا وفاجأنا في كل إنتاج فكري جديد. وجديد هذا الكتاب يكمن في تشريح نسيج المجتمع وثقافته وتفكيك عوامل السقوط. ولا غروَ أن المؤلف قد امتلك مهارات الإبحار في هذا الموضوع الشائك، فقاد القارئ في سلاسة ومنطق مرتب وأفكار مترابطة جعلت من قراءة الكتاب متعة وسلسلة من مفاجآت متلاحقة حيث يجد

القارئ اللامفكر فيه، وتشخيص وتحليل اللامعقول من خلال المنطق والمعقول.

ولا أجاوز الحقيقة في أن هذا الكتاب، على صغر حجمه، إضافة نوعية للمكتبتين اليمنية والعربية.

د. احمد عبدالكريم سيف المصعبي

المكتب السياسي للمقاومة الوطنية

المخا فبراير 2023

1

اليمن بلد الحضارة الإنسانية الأولى

في جنوبِ شبه الجزيرة العربية، ومنذ فجر التاريخ الأول تشكلت واحدة من أولى الحضارات الإنسانية قاطبة، والحقيقة أنها حضارات متعاقبة، تداولتها أكثر من دولة عبر حقب متتالية من الزمن.

في كتاب «تاريخ الجنس البشري» للمؤرخ محمد عزة دروزة، وهو بصدد المقارنة بين حضارات المنطقة، يقرر أن ملوك الدولة المصرية الأوائل «مملكة منا» قبل خمسين قرنا قبل الميلاد، أو خمسة وثلاثين قرنا في رواية أخرى قد تركوا آثارًا حضارية كبيرة في مختلف المجالات، وثبت أنّ الذين أقاموا هذه الدولة هم من موجات جزيرة العرب، وتحديدا جنوب الجزيرة العربية الذين انساحوا إلى وادي النيل قبل ذلك بمئاتِ السنين، جاؤوا إلى مصر ومعهم حضارة أرقى مما كان فيها، وأنهم هم الذين أتوا بفن التحنيط والكتابة الهيروغليفية... إلخ.[1]

ويقول المؤرخ محمد حسين الفرح: "بدأت عصورُ الحضارةِ في اليمن منذ الألف العاشر قبل الميلاد، وفي الألف التاسع قبل الميلاد. وقد دلت نتائجُ التنقيبات الأثرية على حقيقة مهمة أشار إليها البروفيسور أدموند بوخنر، رئيس معهد الآثار الألماني في برلين؛ حيث أدلى البروفيسور أدموند بوخنر سنة 1986م بتصريح مهم قال فيه: إنّ اليمن من الأقطار المهمة للأبحاث الأثرية، نظرًا لوجود أقدم الحضارات فيها، وكان اعتقادنا في الماضي أن أقدم

---

1 انظر: تاريخ الجنس العربي، محمد عزة دروزة، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط:1، 1/35، فما بعدها.

المراكز الحضارية في العالم هي مصر وبلاد الرافدين، أما الآن فقد اتضح أنّ اليمن من أقدم المراكز الحضارية في العالم".[1]

بنى اليمنيون منذ فجر التاريخ الأول حضارة، امتدت خارجَ اليمن فيما بين الفينة والأخرى، كعادة الإمبراطوريات التوسعية، ومع هذه الحضارة عرفوا أنماطًا من الرفاه الاجتماعي والعيش الحضاري لم يُعرف عند بقية الأمم، بشهادة المؤرخين القدامى الغربيين أنفسهم، أمثال بطليموس وهيرودت وبليني وأغاثير سيدس وإسترابون وديودور الصقلي وغيرهم.

المدنية والرفاه الاجتماعي

الرّفاهُ الاجتماعي مرتبطٌ بقوة الدول وتطور الحضارات كحالةٍ جمعيّةٍ، أكثر من ارتباطه بالرخاء المالي أو الاقتصادي للشخص كحالة انفرادية، بمعنى أنَّ من غير المستساغ وصف شخصٍ ما بأنه من ذوي الرفاه الاجتماعي في مجتمعٍ متخلفٍ وبيئة فقيرة، وإن كان يملك من المال ما يملك؛ لهذا تسعى السياساتُ الاقتصادية المتوازنة والرشيدة عبر تاريخها إلى تقليل الفقراء، لا تكثير الأغنياء.

يقول المؤرخ جورجي زيدان واصفًا حضارة اليمن: "أمّا عربُ اليمن القحطانيّة فقد تمدنوا تمدنا لا تزال آثاره مطمورة تحت الرمال في حضرموت ومهرة واليمن، وأشهر دولهم عند العرب

1 الجديد في تاريخ دولة وحضارة سبأ وحمير، محمد حسين الفرح، إصدارات وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء، 2004م، 1/27.

حمير وسبأ وكهلان، وتاريخ هذه الدول أقرب عهدا من عاد وثمود، وقد اكتشف الباحثون بعض آثارهم، وأكثر ما اكتشفوه أنقاض بعض الأبنية في صنعاء وعدن وحضرموت، فاستخرجوا منها ألواحا مكتوبة بالقلم الحميري المسند، أكثرها دعاء ديني أو نحوه، ولم يتمكنوا من التنقيب عن الدفائن المهمة في داخلية البلاد لمشقة الوصول إليها، ناهيك عما ذكره مؤرخو العرب عن أبّهة تلك الدول، وكانت قد انحلت قبل الإسلام؛ لكن أخبارَها كانت إلى ذلك العهد لا تزالُ مألوفة، وفيها ما يدلُّ على تمدُّنٍ قديم، لا يقل عن تمدن الآشوريين والمصريين والفينيقيين؛ فقد أنشأوا المدن، وعمروا القصور، وغرسوا الحدائق، ونحتوا التماثيل، وحفروا المناجم، ونظّموا الجُند، وفتحوا البلاد، ووسعوا التجارة، وأتقنوا الزراعة، ".[1]

ويقولُ ديودور الصقلي في سياق حديثه عن السبئيين: "أمّا السّبئيون فإنهم متفوقون على جميع العربِ المجاورين، وغيرهم من الشعوب، بثرواتهم وبذخهم بنوع خاص، وهم في الواقع يحصلون على أفضل الأسعار في مقايضات البضائع والصفقات التجارية، ولهذا السبب، ولكون بُعد بلادهم قد جعلهم في منأى عن الغزو زمنا طويلا، تراكمت لديهم أكوام الذهب والفضة، ولاسيما في سبأ حيث يقوم القصر. والأقداح المختلفة التي يستعملونها مزينة بنقوش ذهبية وفضية، وقد استعملوا الأسرَّة والمشاجب والقوائم الفضية، واتسمت سائر أنواع الأثاث التي

1 تاريخ التمدن الإسلامي، جرجي زيدان، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، د. ط. 1/19.

استعملوها بفخامة لا يكاد يصدقها العقل، وانتصبت في مقدمة منازلهم مجموعة من الأعمدة الطويلة، بعضها مذهَّب، وبعضها الآخر مزدان بتيجان تحمل رسوما فضية"[1].

ويقول أغاثير سيدس: "للسبئيين في منازلهم ما يفوقُ التصديق من الآنية والأوعية، على اختلاف أشكالها من الفضة والذهب، وعندهم الأسرة والموائد من الفضة، والرياش من أفخر الأنسجة وأغلاها. قصورهم قائمة على الأساطين المحلاة بالذهب أو المزينة بالفضة. يعلقون على أفاريز منازلهم وأبوابها صحائف الذهب مرصَّعة بالجوهر، ويبذلون في تزيين قصورهم أموالا طائلة، لكثرة ما يُدخلونه في زينتها من الذهب والفضة والعاج والحجارة الكريمة، وغيرها من المواد الثمينة"[2].

وتذكر المؤلفة جاكلين بيرين نسبة إلى استرابون: "إن السبئيين قد جمعوا ثروات طائلة من المتاجرة بالطيوب، فاقتنوا أواني مطبخ ذهبية وفضية ومزهريات وشجبا وأكوابا كبيرة ذات أغطية، وكانت مساكنهم بادية الفخامة والروعة، كُسيت أبوابها وجدرانها وسقوفها بالفسيفساء الذهبية والفضية والعاجية المزدانة بالحجارة الكريمة".[3]

---

1 اكتشاف جزيرة العرب، جاكلين بيرين، ترجمة: قدري قلعجي وحمد الجاسر، دار الكاتب العربي، بيروت، د.ت. 30.

2 اليمن وحضارة العرب، الدكتور عدنان ترسيسي، دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت. 71. وانظرها أيضا في: تاريخ العرب قبل الإسلام، جورجي زيدان، 163.

3 نفسه، 30. والجدير بالذكر هنا أن كلمة "الطيب" تعني الذهب لدى بعض اليمنيين، ولا تزال مستخدمة إلى فترة قريبة في حضرموت والمهرة.

وقال البحاثة الأثري المستشرق «سانس» : إن اليَمَن سابقة في تمدُّنها على مصر وبابل، وإنها هِي البلاد التي هاجر منها إلى مصر الفراعنة العظام، وحملوا معهم العلم والحكمة والزراعة.[1]

وذكر «موسكاتي» أن اليمنيين كانوا يبذلون عناية كبيرة بالبناء في تزيين الجدران والأعمدة بفُصوصٍ من الذهبِ، أو غيره من المعادن التي كان جنوب الجزيرة غنيًّا بها.[2]

ويقول المستشرق جون فيلبي: "إنَّ مُشَاركةَ أهْل بِلاد العَرَب الجنوبيَّة في بناء الحَضَارةِ الإنسانيّة أمرٌ لا يكاد يمكن في وصفه المغالاة، وقَدْ يحسنُ بنا أن نذكرَ أنّ بِلاد العَرَبِ الجنوبيَّة على أقل تقدير طوالَ الألفيْ عام السَّابقة لظهور «محمد» قوة من القوى العُظمى على الأرض، لها أعمالها التجارية والفكريَّة، ثم غدت بعد ذلك قُطب الرحى، من إمبراطورية عالميَّة عُظمى، تم لها بوحي الإِسْلام ومتابعته، فحملت مشعلَ المعرفة، متوقدة في عهود كان يغمر فيها الظلام في أوربا، ولكنها قد نسيت ماضيها، أو انصرفت عن تقدير ما قامت بإنجازه من أعْمَال في قديمها العتيد.[3]

وبين يدينا جزء من قصيدة شعرية للشاعر الروماني برسكاني، يذكر فيها جانبا من حياة اليمنيين ورفاهيم، ومقدار الذهب المتدفق بين أيديهم. يقول النص:

---

1 اليمن الخضراء مهد الحضارة، محمد بن علي الأكوع الحوالي، مكتبة الجيل الجديد، ط:2، 1982م، 204.

2 الحضارات السامية القديمة، سبتينو موسكاتي، ترجمة: السيد يعقوب بكر، دار الرقي، بيروت، 1986م، 198.

3 اليمن الخضراء، سابق، 204.

وذلك أن الأرض الغنية تقدم الغذاء لشعوب سعيدة

تظهر العطور ذات العبير الرائع من الزهور المتنوعة

لأن اللبان والمر يزدهران مع البخور الرائع

وكذا شجرة السنط، طيبة الرائحة

والقرفة التي يفوح عبيرها في الفضاء ليدخل الأنوف

والأرض الخصبة تنتج هذا. وهناك مناجم الذهب

وهؤلاء الناس يرتدون الثياب الموشاة بالذهب

يخدمهم عبيدهم وأولادهم ينعمون

وهم يسرفون ويستخدمون الذهب بشكل يثير غضب الصدور.

وثمة نص آخر لشاعر آخر «ديونيسيوس»، يقول عن حياة اليمنيين القدماء ومعيشتهم:

ومن ثم، وحتى يومنا هذا توجد حقول مثمرة بالبخور

وجبال متميزة بالذهب، وأنهار تفيض بالعطور

أما السكان أنفسهم فهم يمتازون أنهم شعب منعم

يرفلون في المشغولات الذهبية والثياب الناعمة[1]

وقد ذكر القلقشندي عن اليمنيين القدامى ما نصه: "إن لأهل اليمن سيادات بينهم محفوظة، وسعادات عندهم ملحوظة، ولأكابرها حظّ من رفاهية العيش والتنعم والتفنّن في المأكل، يطبخ في بيت الرجل منهم عدّة ألوان، ويعمل فيها السكّر والقلوب، وتطيّب أوانيها بالعطر والبخور، ويكون لأحدهم الحاشية

1 انظر: الجزيرة العربية واليونان وبيزنطة، التواصل الحضاري عبر العصور القديمة والوسيط، رضا عبد الجواد كمال رسلان. 30.

والغاشية، وفي بيته العدد الصالح من الإماء، وعلى بابه جملة من الخدم والعبيد والخصيان من الهند والحبوش، ولهم الدّيارات الجليلة، والمباني الأنيقة، إلا الرّخام ودهان الذهب واللازورد، فإنه من خواصّ السلطان، لا يشاركه فيه غيره من الرّعايا.[1]

الإنسان اليمني متفنن بطبعه، لم يكتف بهندسة الحجارة وصفِّها وتزيينها؛ بل اهتم بالألوان كذلك، وبالمظاهر الخارجية للبناء، فاتخذ الحجارة الملونة للبناء، وكون منها مناظر متعددة الألوان، محاكاة للطبيعة، وكسا السقوف والأبواب والأعمدة وبعض الجدران بصفائح الذهب والفضة، وبالحجارة الكريمة وبسن العاج[2] والأخشاب الغالية الثمينة، فأكسب البناء روعة وجمالا وخشوعا، واستعمل الرخام لكساء أوجه الجدران أو في فرش أرض الغرف والمعابد؛ ليكسبها بهجة وجمالا، واستعمله ألواحا رقيقة تزخرف بالصور والنقوش، لتعبر عن مباهج الحياة.[3]

القلم والكتابة

تكاد تُجمع كل المصادر التاريخية أن أصل الخط والقلم يمني. وليس ذلك ببعيد؛ بل في حكم المحتمل بيقين عالٍ؛ كون اليمنيين قد أسّسوا أولى الحضارات الإنسانية في ذلك الركن

---

1 صبح الأعشى في صناعة الإنشا، أحمد بن علي بن أحمد الفزاري القلقشندي، دار الكتب العلمية، بيروت، 5/7.

2 العاج مادة ثمينة، تُنحت وتُصنع من أسنان الفيلة.

3 المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، د. جواد علي، ط:2، 1993م، 2/26.

القصي من الجزيرة العربية، ومن ملامح هذه الحضارة ومعالمها الخط الذي يعدُّ من لوازمها.

ولا يُجمع المؤرخون والرواة على تاريخ معين لبدء الكتابة، فقد ذهبوا كل مذهب في ذلك، حتى أن بعضهم ربطها بآدم، أبي البشرية، عليه السلام مباشرة، فيما قال آخرون بإدريس، وقال آخرون بغيرهما؛ علمًا أنها لم تتطور إلى الحالة التي وصلت إليها على الأقل في القرن الثامن الميلادي إلا بعد عدة مراحل مرت بها. يقول القلقشندي: في السيرة لابن هشام: إن أول من كتب الخط العربي حمير بن سبأ، عُلِّمه في المنام. قال: وكانوا قبل ذلك يكتبون بالمسند، سمي بذلك؛ لأنهم كانوا يسندونه إلى هود عليه السلام.[1]

والحقيقة أن قوله: "عُلِّمَه في المنام" لا تصمد أمام النقد العلمي، ولا يستسيغها عقل؛ لأن الخط من جملة الصنائع، وفق الإشارة الخلدونية. ولا شك أن الأمة اهتدت إليه بمحاولاتها الخاصة، ضمن ما اهتدت إليه من علوم ومهارات أخرى.

ويقول الباحث في شؤون الخط ونشأته محمد طاهر بن عبد القادر الكردي المكي: "إن الخط المسند هو أصل الخط العربي".[2]

مضيفا: "إن بعض علماء الإفرنج يذهبون إلى ما ذهب إليه مؤرخو العرب، منهم المستشرق موريتز الألماني، فإنه يقول: إن

---

1 صبح الأعشى في صناعة الإنشا، سابق، 3/13.

2 تاريخ الخط العربي وآدابه، محمد طاهر بن عبد القادر الكردي المكي، مكتبة الهلال، القاهرة، ط:1، 1939م، 41.

اليمانيين هم الذين اخترعوا الكتابة، وليس الفينيقيون هم الذين اخترعوها، كما هو الرأي المشهور، ويستدل على هذا بقوله: إن الفينيقيين إنما بنوا كتابتهم على الكتابة العربية اليمانية، ثم إن اليونانيين أخذوا الكتابة عن الفينيقيين، وعنهم أخذ الرومانيون، فالعرب هم الذين أوجدوا الكتابة في العالم،".[1]

ومعلوم أن اليونانيين وغيرهم اقتبسوا الحروف من الفينيقيين "ألف باء" الذين هاجروا من الجنوب، واستقروا أولا في شرقي الجزيرة العربية، بمحاذاة الخليج العربي، ثم نزحوا إلى فلسطين واستقروا فيها، وسيطروا على سواحل البحر الأبيض المتوسط الشرقية، مثل غزة وعكا وصيدا، واتصلوا باليونان وجزر البحر الأبيض المتوسط وجنوب إيطاليا، واقتبس هؤلاء منهم الخط أو الحروف.[2]

يقول ابن خلدون في المقدمة: "وقد كان العربي بالغا مبالغه من الإحكام والإتقان والجودة في دولة التبابعة، لِما بلغت من الحضارة والترف، وهو المسمى بالخط الحميري، وانتقل منها إلى الحيرة لما كان بها من دولة آل المنذر، نسباء التبابعة في العصبية، والمجددين لملك العرب بأرض العراق، ولم يكن الخط عندهم من الإجادة كما كان عند التبابعة، لقصور ما بين الدولتين، ومن الحيرة لُقنه أهل الطائف وقريش - فيما ذكر- ويقال: إن الذي

---

1 نفسه، 41.

2 خط الجزم ابن الخط المسند، محمد علي مادون، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ط:1، 1989م، 22.

تعلم الكتابة من الحيرة هو سفيان بن أمية، ويقال حرب بن أمية، وأخذها من أسلم بن سدرة، وهو قول ممكن وأقرب ممن ذهب إلى أنهم تعلموها من إياد أهل العراق، لقول شاعرهم:

قوم لهم ساحة العراق إذا ساروا جميعا والخط والقلم

وهو قول بعيد؛ لأن إيادا وإن نزلوا ساحة العراق فلم يزالوا على شأنهم من البداوة، والخط من الصنائع الحضرية، وإنما معنى قوم الشاعر أنهم أقرب إلى الخط والقلم من غيرهم من العرب، لقربهم من ساحة الأمصار وضواحيها، فالقول بأن أهل الحجاز إنما لقنوها من الحيرة ولقنها أهل الحيرة من التبابعة وحمير هو الأليق من الأقوال، ورأيت في كتاب التكملة لابن الأبَّار عند التعريف بابن فروخ القيرواني الفاسي الأندلسي من أصحاب مالك رضي الله عنه، واسمه عبد الله بن فروخ بن عبدالرحمن بن زياد بن أنعم، عن أبيه قال: قلت لعبد الله بن عباس: يا معشر قريش خبروني عن هذا الكتاب العربي، هل كنتم تكتبونه قبل أن يبعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم تجمعون منه ما اجتمع، وتفرقون منه ما افترق، مثل الألف واللام والميم والنون؟ قال: نعم. قلت: وممن أخذتموه؟ قال: من حرب بن أمية. قلت: وممن أخذه حرب؟ قال: من عبد الله بن جدعان. قلت: وممن أخذه عبد الله بن جدعان؟ قال: من أهل الأنبار. قلت: وممن أخذه أهل الأنبار؟ قال: من طارئ طرأ عليه

من أهلِ اليمن. قلت: وممن أخذه ذلك الطارئ؟ قال: من الخلجان بن القسم، كاتب الوحي لهُود النبي عليه السلام".[1]

ويضيف ابن خلدون: "وكان لحمير كتابة تسمى المسند، حروفها منفصلة، وكانوا يمنعون من تعلمها إلا بإذنهم، ومن حمير تعلمت مُضر الكتابة العربية، إلا أنهم لم يكونوا مجيدين لها، شأن الصنائع إذا وقعت بالبدو، وكانت كتابة العرب بدوية مثل كتابتهم أو قريبا من كتابتهم لهذا العهد، أو نقول: إن كتابتهم لهذا العهد أحسن صناعة، لأن هؤلاء أقرب إلى الحضارة ومخالطة الأمصار والدول".[2]

وفي هذا قال أحد شعراء كندة شعرا، يَمُنُّ على قريش:

فلا تجحدوا نعماء بشر عليكمو   فقد كان ميمون النقية أزهرا

أتاكم بخط الجزم[3] حتى حفظتمو   من المال ما قد كان شتى مبعثرا

وأتقنتموا ما كان بالمال مهملا   وطامنتموا ما كان منه منفــــرا

فأجريتم الأقلام عودا وبــــدأة   وضاهيتمو كتّاب كسرى وقيصرا

وراعيتمو من مسند القوم حمير   وما زبرت في الكتب أقلام حميرا

ويقول الشاعر أبو ذؤيب الهذلي:

عرفت الديار كرقم الدوا   ة يزبرها الكاتب الحميــري

كما يقول امرؤ القيس:

---

1 مقدمة ابن خلدون، عبدالرحمن بن خلدون، ضبط وتصحيح ومراجعة: خليل شحادة وسهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 2001م، 524. وانظر أيضا: صبح الأعشى، 3/14.

2 نفسه، 526.

3 يطلق على قلم حمير خط الجزم.

ويرى المستشرق هومل والمستشرق موريتيز أن إيجاد الكتابة بالحروف بعد الكتابة الهيروغليفية كان في اليمن، وأن الفينيقيين أخذوا أحرفهم من الخط السبئي.[1] وأن اليمنيين هم الذين اخترعوا الكتابة، وليس الكنعانيين أو الفينيقيين، وأن اليمانيين أهدوا الكتابة إلى الحيرة، ومن الحيرة عرفها الفينيقيون، وعنهم أخذ الرومانيون وعرب الشمال.

"ومما يؤيد هذا القول من أن الخط المسند أو الحروف الحميرية أول حروف هجائية عرفت هو ما ذهب إليه الأستاذ رزوق عيسى حيث قال: لنرجع إلى تلك الحضارة القديمة، ولنعد النظر في اكتشاف الكتابة المعينية التي تدل على وجود حروف هجائية أقدم عهدا من الحروف الفينيقية التي اشتهرت في العالم القديم بأنها الحروف الأولى التي استنبطت لغاية تدوين الأفكار وصيانتها من الاندثار والطموس، ولا شك في أن اللغة المعينية وحروفها أقدم عهدا بكثير من سائر لغات السّاميين وكتاباتهم".[2]

ويذكر الدكتور شوقي ضيف أن النقوش الصفوية والثمودية واللحيانية في الجزيرة العربية قد كُتبت بالخط المعيني الجنوبي.[3]

---

1 انظر: خط الجزم ابن الخط المسند، سابق، 22.

2 تاريخ حضارة اليمن القديم، زيد بن علي عنان، دار المطبعة السلفية، ط:1، 1396هـ. 74.

3 تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي، د. شوقي ضيف، دار المعارف، ط:11، 33.

بلقيس، نموذج حضاري قديم

كانت المرأة في الحضارة اليمنية تعيشُ وضعها الطبعي بما لها أو عليها، جنبا إلى جنب مع الرجل، دون انتقاص أو ازدراء، على العكس مما كان عليه الأمر لدى الإغريق من يونان ورومان، ليس ذلك فحسب؛ بل لقد تسنمت أرقى المناصب السيادية في البلد، كملكة متوجة تأمر وتنهى، إلى حد أن يقول لها قومها: (والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين)؟! وفي المجال الديني تسنمت المرأة مناصب دينية كبيرة، بل لقد تم الاستسقاء بها، ناهيك عن الاشتغال بالعمل العام كالتجارة والزراعة وغير ذلك. وهي حالة تعكس رُقيًّا مدنيًا وحضاريًا لدى العامة والخاصة؛ لأنَّ مجردَ وصول امرأة إلى سدة الحكم ليس بالأمر السهل؛ بل من المستحيل في المجتمعات التقليدية والبدائية، وتاريخيا لم تنل المرأة حقها كاملا إلا في المجتمعات التي بلغت درجة عالية من الرقي والتمدن فقط؛ ولأن قوم سبأ قد كانوا كذلك فقد وصلت بلقيس إلى ناصية الحكم، ملكة متوجة، تحكم قومها بالشورى الملئيّة.

حكمتْ بلقيس بنت إل شرح بن الهدهاد بن شرحبيل بن ذي سحر، في القرن العاشر قبل الميلاد، فيما بين 924- 946ق. م. لما يزيد عن اثنين وعشرين عاما. وقد قص الله حديثها مع نبيه سليمان بن داود في القرآن الكريم؛ مُشيرا إلى إسلامها معه لله رب العالمين. وتُعدّ الترتيب السابع عشر من بين ملوك سبأ التبابعة الذين ابتدؤوا بالحارث الرائش باران ذو رياش.

واسم بلقيس كما يرى المختصون من الأسماء المركبة تركيبًا مزجيًا، أي بإضافة كلمة إلى كلمة أخرى، مكونا من شقين: "بلق" و "ايس". مثلها مثل كثير من الأسماء آنذاك، كاسم الملك أفريقيس والأميرة السبئية لميس، وكذا اسم رميس وعميس وغيرها.[1]

والبلق هو اجتماع السواد والبياض معا، وفرس أبلق خالط بياضه سواد، وكانت من الخيول المفضلة قديما لجمالها، وهذا يعني أنها كانت بيضاء مائلة إلى السمرة. أما ايس: فهو من اسماء الإله الشمس، فاجتمعت الكلمتان، بمعنى أن أصل الاسم هكذا: بلق ايس، بمعنى الجمال المفضل، وكما يرى المؤرخ الفرح فإن المعنى: ذات الجمال الشمسي، أو ذات الجمال الإلهي.[2] وهناك تخريجات أخرى لبعض المستشرقين من تركيبات الاسم وفقا للغاتهم، قد لا تقترب من الحقيقة، كالفتاة العاشقة، كما

1 لميس الكبرى بنت نوف، أم أفريقيس بن ذي المنار. وقد ورد الاسم في أحد النقوش بنص: "وبحق إلههم الخاص حجر قحم سيد حصني تنع ولميس وسيد قصر أحرم" ذكر ذلك مطهر الإرياني في: نقوش مسندية وتعليقات، ص 51. ونقلها عنه المؤرخ الفرح في كتابه: الجديد في تاريخ دولة وحضارة سبأ وحمير، 1/288. وفي الإكليل للهمداني قال أبو نصر: وجد في ولاية محمد بن يوسف أخي الحجاج من عند عبد الملك بن مروان في بعض قبور الجاهلية باليمن كتاب على قبر جاهلي، فاستخرجت منه سفطا من ذهب، وفي السفط لوح من ذهب وعظام إنسان، واللوح بالمسند: هذه شمسة ولميس ابنتا تبع. متنا فإننا نشهد ألا لا إله إلا الله. فلما قرأ الحجاج الكتاب كتب إليه، ويقال: إن الكتاب إلى عبدالملك بن مروان والجواب منه: أما بعد، فقد جاءني معنى كتابك، وفهمت ما ذكرت فيه، فإذا وصل إليك كتابي هذا فمر بالعظام أن تغسل، وصل عليها وادفنها، وادفع الكنز إلى بيت المال، ولا تعودن إلى ما صنعت. وأمير المؤمنين يشهد ألا إله إلا الله. والسلام. انظر: الإكليل 8/149.

2 الجديد في تاريخ دولة وحضارة سبأ وحمير، 1/288.

يرى مونتجمري وات اليوناني، أو صاحبة الكنز كما يرى المستشرق الفرنسي دارمي.

أما عن مجلسها وحكمها فقد روى الخليفة المهدي بن المنصور عن جده عبد الله بن عباس، قال: كان أولو مشورتها ألف قيل، تحت يد كل قيل ألف مقاتل. وقال قتادة: كانت بلقيس في بيت مملكة، وكانت بأرضٍ يُقال لها مأرب من صنعاء على ثلاثة أيام، وكان أولو مشورتها ثلاثمئة واثني عشر قيلا، كل قيل منهم على عشرة آلاف رجل، وقال مجاهد: كان مع بلقيس ملكة سبأ اثنا عشر ألف قيل، مع كل قيل مئة ألف مقاتل. ثم يضيف: وبلقيس اسمان، جُعلا اسما واحدا، مثل حضرموت: حضر الموت، وبعلبك: بعل بك. وذلك أن بلقيس لما حكمت بعد أبيها الهدهاد قال بعض حمير لبعض: ما سيرة هذه الملكة من سيرة أبيها؟ فقالوا: بلقيس، أي: بالقياس، فسميت بلقيس.[1]

قال تعالى: (إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (23) وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنْ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ)

وفي الآيات التي سردتها القصة عن بلقيس مع قومها نستنتج الآتي:

1. إشارة إلى طبيعة الحكم الملكي: " تَمْلِكُهُمْ".

---

1 نساء حكمن اليمن، عفت وصال حمزة، دار ابن حزم، بيروت، ط:1، 1999م، 36.

2. الرخاء المادي والرفاه الاجتماعي: "وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ".
3. إشارة إلى الديانة الرسمية للشعب: "يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ".
4. إشارة إلى طبيعة نظام الحكم الشوروي: "أَفْتُونِي فِي أَمْرِي".[1]
5. إشارة إلى قوة الدولة: " نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ".
6. إشارة إلى اللغة الدبلوماسية الذكية في التعامل «الملوكي» حين سئلت بعد الرحلة: "أَهَكَذَا عَرْشُكِ"؟ فردت: "كَأَنَّهُ هُوَ"! إذ لم تؤكد ولم تنف في نفس الوقت. وهي نفس اللغة التي كانت مع الهدهد: "غَيْرَ بَعِيدٍ"! فلم يكن قريبا، ولم يكن بعيدا في الوقت نفسه. وكأنه جمع بينهما!
7. إشارة إلى الهدية في الزيارات الرسمية والمراسيم الملوكية "مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ".

ونقف هنا عند قوله تعالى: (وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ)، فإنها بمقابل قوله تعالى على لسان سليمان: (وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ)!

والواقع أن ما أوتيَه سليمانُ عليه السلام هو من الله عز وجل، استجابة لدعوته: (وَهَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي).

أما ما أوتيتْه بلقيس الملكة السبئية فبالكسب الحضاري لشعب سبأ، ولم يكن مُلكا أو نعيما عارضا من السماء بلا جهد أو نتاج دعوة.

---

1 كان للملوك التبابعة مجلس شورى مكون من ثمانين قيلا، يسمون: المقاول، وإلى جانبهم ثمانية آخرون يسمون «الأذواء المثامنة» هم الذين يقيمون الملك وينصبونه، كما أن من حقهم عزله أيضا.

من ناحية ثانية فإن دلالة السياق عامة، شاملة لكل ما يخطر على البال، "شيء"، وشيء: نكرة تامة تفيد العموم، ولا تُقيد بقيد، كما هو معروف عند أهل اللغة.

وقد فصلت التوراة طرفا من الرحلة، مشيرة إلى الهدايا العظيمة التي صحبت بلقيس وموكبها، ففي سفر الملوك الأول:

8. وَسَمِعَتْ مَلِكَةُ سَبَا بِخَبَرِ سُلَيْمَانَ لِمَجْدِ الرَّبِّ، فَأَتَتْ لِتَمْتَحِنَهُ بِمَسَائِلَ.

9. فَأَتَتْ إِلَى أُورُشَلِيمَ بِمَوْكِبٍ عَظِيمٍ جِدًّا، بِجِمَال حَامِلَةٍ أَطْيَابًا وَذَهَبًا كَثِيرًا جِدًّا وَحِجَارَةً كَرِيمَةً. وَأَتَتْ إِلَى سُلَيْمَانَ وَكَلَّمَتْهُ بِكُلِّ مَا كَانَ بِقَلْبِهَا.

10. وَأَعْطَتِ الْمَلِكَ مِئَةً وَعِشْرِينَ وَزْنَةَ ذَهَبٍ وَأَطْيَابًا كَثِيرَةً جِدًّا وَحِجَارَةً كَرِيمَةً. لَمْ يَأْتِ بَعْدُ مِثْلُ ذلِكَ الطِّيبِ فِي الْكَثْرَةِ، الَّذِي أَعْطَتْهُ مَلِكَةُ سَبَا لِلْمَلِكِ سُلَيْمَانَ.

11. وَكَذَا سُفُنُ حِيرَامَ الَّتِي حَمَلَتْ ذَهَبًا مِنْ أُوفِيرَ، أَتَتْ مِنْ أُوفِيرَ بِخَشَبِ الصَّنْدَلِ كَثِيرًا جِدًّا وَبِحِجَارَةٍ كَرِيمَةٍ.

12. فَعَمِلَ سُلَيْمَانُ خَشَبَ الصَّنْدَلِ دَرَابَزِينًا لِبَيْتِ الرَّبِّ وَبَيْتِ الْمَلِكِ، وَأَعْوَادًا وَرَبَابًا لِلْمُغَنِّينَ. لَمْ يَأْتِ وَلَمْ يُرَ مِثْلُ خَشَبِ الصَّنْدَلِ ذلِكَ إِلَى هذَا الْيَوْمِ.[1]

---

1 سفر الملوك الأول، الإصحاح التايع، الفقرات المقابلة. و "أوفير" المذكورة في الفقرة 11 هي المعافر من تعز، بحسب تفسيرات بعضهم، فيما يرى آخرون أنها ظفار.

وفي الإنجيل من خطاب عيسى عليه السلام لقومه: "هذا الجيل شرير، إن ملكة اليمن ستقوم في يوم الدين مع رجال هذا الدين وتدينهم؛ لأنها أتت من أقاصي الأرض لتسمع حكمة سليمان، وها هو ذا أعظم من سليمان ها هنا".[1]

"إن ذلك الذكر والتخليد لملكة اليمن، ملكة سبأ، في القرآن والتوراة والإنجيل يدل على أنها أشهر ملكة في تاريخ الإنسانية كلها، فلم تُجمع الكتب السماوية الثلاثة على ذكر ملكة سواها، فنالت الخلود إلى يوم الدين، وكذلك فقد ذكرتها كتب التاريخ، وذكرها العلماء والمؤرخون والأدباء عبر الأزمنة والعصور، فأجمعت على ذكرها السماء والأرض، بما يدل على أنها أشهر وأعظم ملكة في تاريخ الحضارة الإنسانية".[2]

وذكرت بعض المصادر أن الملكة بلقيس قد اصطحبت معها حاشية عظيمة من المرافقين والجند والخدم، وحملت معها أغلى وأنفس الطيوب والتوابل والذهب والفضة، تم تحميلها في 779 جملا، وتم تحميل أعداد لا تحصى من البغال والحمير.[3]

وفي هذا قال نشوان الحميري شعرا:

أم أين بلقيس المعظم عرشها   أو صرحها العالي على الأصراح؟

زارت سليمان النبي بتدمـر   من مارب دينا بلا استنكــــاح

في ألف ألف مدجج من قومها   لم تأت في إبل إليه طـــــلاح

---

1 إنجيل لوقا الإصحاح 11.

2 الجديد في تاريخ دولة وحضارة سبأ وحمير، 1/281.

3 بلقيس امرأة الألغاز، سابق، وانظر أيضا الجديد في تاريخ حضارة ودولة سبأ وحمير، 316.

الفن في الحضارة اليمنية القديمة

يُقال: السياسةُ فنُّ الأمم المتخلفة، والفنُّ سياسةُ الأمم المتقدمة. وقد عرف اليمنيون الفنون من زمن قديم، وعلى الرغم من المؤشرات القوية في الآثار اليمنية التي تشير إلى هذا المجال قديما فإن ما تم اكتشافه ودراسته قليل جدا قياسا إلى ما يزال مطمورا تحت الأنقاض ورهنا لعبث الباحثين من عامة الناس بلا دراية أو معرفة، ناهيك عن التدمير المُمنهج بعمد، وبغير عمد من قبل بعضهم لآثار اليمن وكنوزها التاريخية، وتكاد حضارة اليمن قياسا إلى الحضارات القديمة الأخرى تخلو من الفنون والدراسات الفنية، على العكس مما عليه الشأن لدى حضارة بلاد الرافدين، ولدى الحضارة الفرعونية التي تمت دراستها والتنقيب عنها، ثم إخراجها للناس، في الوقت الذي لم يتم الاكتشاف من حضارة اليمن إلا القليل، والقليل جدا، لا لأنها بلا فنون؛ إنما لندرة الباحثين في هذا المجال.

أيضا عرف اليمنيون القدماء فن النحت والزخرفة على الأحجار والفخار والأخشاب، لتخليد بعض شخصياتهم، أو بعض المواقف التصويرية التي تستحق التوثيق والتخليد، أو نحت بعض الحيوانات ذات الطابع الديني المقدس أو الفني الخالص، ناهيك عن النحت المعماري المميز، ممثلا في الأسطوانات وقوائم المعابد والقصور والأحجار، وهي كثيرة؛ حيث أقدم النحاتون على تزيين أعمدة المعبد برسوم العصافير التي يرى بعض الناس أنها تعبر عن شجرة الحياة، كما في بلاد

الرافدين، فتظهر الطيور وهي تحوم فوق زخرفة نباتية، دائرة الشكل، يتدلى منها أغصان، تكسوها أوراقٌ عريضة، برؤوس ومناقير صغيرة، وبأجنحة مفرودة وأقدام ممدودة. الجدير ذكره أن منظر تصوير العصافير ضمن مشاهد الزخرفة النباتية، المتمثلة في الغالب بزخرفة أوراق وثمار العنب قد عرفت منذ فترات تاريخية مبكرة في مختلف ممالك اليمن القديمة، واستُخدمت في الغالب كأفاريز تزين جدران المباني وسطوحها وواجهاتها، وأحيانا كانت توضع كزخارف تزين عتبات الأبواب والنوافذ وتيجان الأعمدة، وعادة ما تظهر العصافير على واجهات الكثير منها برؤوس ومناقير صغيرة، تلتقط الثمار، وبأجنحة مفرودة، وأقدام صغيرة ممدودة، تتخلل أجنحتها خطوطٌ غائرة صغيرة، تعبر عن موضع الريش المغطي لها.[1]

وللأسف فإن المتاحف الغربية، وخاصة في فرنسا وبريطانيا وألمانيا تكتنز بالعديد من المنحوتات الأثرية اليمنية القديمة التي يعود تاريخها إلى العصور السبئية والحميرية، في الوقت الذي لا يكاد اليمنيون يعرفون عنها شيئا.

وتعود أقدم نماذج النحت اليمني إلى الألف الثالثة قبل الميلاد، وهي عبارة عن شواهد لقبور من الحضرميين، أسلوب نحتها وطريقته بدائية وغير دقيقة، توضح بعض معالم الوجوه المكتنزة واللحية الكثة والأذرع المحورة. وتنتطق هذه الشخصيات

---

1 أشكال الطيور في الفن اليمني القديم، دراسة فنية مقارنة، أدهم عبد الله محمد نجيم، رسالة ماجستير، جامعة صنعاء، 2012م، 203.

خناجر "جنابي" أطرافها حادة مخروطة الشكل، ومقبضها ناعم، ينتهي برأس هلالي، إضافة إلى عدة أعمال فنية على الأحجار، بوضعيات مختلفة.

وفي شواهد القبور السبئية ترتدي النساء أثوابا طويلة تصل إلى القدمين، على شكل طيات ملتفة، ويبدو الثوب على النصف العلوي المنحوت للمرأة بتشكيل متقن دقيق شفاف، وقد يمثل عند فتحة الرقبة على شكل أشعة الشمس، مع إظهار مواضع التكفيت وطرف الأكمام القصيرة، بالإضافة إلى الملابس، فقد شكلت الأحذية لبعض النماذج أنواعا منها على شكل حذاء ذي مشبك، أو حذاء يغطي كامل القدمين، والتي من المحتمل أنها عُملت للمتوفى صاحب شاهد القبر، وهو الحذاء الذي وجد بجانب المومياوات المكتشفة في اليمن. واختلفت تسريحات الشعر بين نماذج الذكور والإناث؛ ففي التماثيل الأنثوية، ذات النحت التكعيبي البدائي عُملت تراكيب مقصوصة على جانبي الرأس، وحصل تطور في بعضها، لتصبح التسريحة طبعية، وفي التماثيل ذات النحت المدور منها ما عُمل الشعرُ على شكل إكليل مضفور، أو أرسلت تسريحات الشعر للخلف، كما في نماذج التماثيل الأنثوية البرونزية، أو يُصفف ويشد للخلف، وقد يُعمل على شكل طاقية بخصلات مضفورة، مركزها وسط الرأس.[1]

---

1 انظر: د. محمد عبد الله باسلامة، الحضارة اليمنية القديمة والمنقولات الأثرية للخارج، مجلة الإكليل، العدد: 28، 2004م، 67.

وصادفت البيئةُ الفنية بيئة طبعية مناسبة من خلال الأحجار الجرانيتيّة والرخامية والجيرية وأحجار البازلت التي نقش عليها الفنان اليمني القديم فنونه بدقة وإحكام، وتعامل معها بمبضع الطبيب إلى حد اعتقاد بعض الناس أن ثمة شهرا في العام تلينُ فيه الحجارة كما يلين العجين، فيسهل على العاملين فيها تشكيلها بكل سهولة وكيفما أرادوا!

ولهذا أشار القرآن الكريم إلى عظمة هذا الفن وذلك الإبداع حين وصف اليمنيين القدماء بقوله: (وَتَنْحِتُونَ مِنْ الْجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهِينَ). لأنهم طوعوا الصخر والجلاميد لأيديهم بصورة لا مثيل لها لدى بقية الأمم كما يوحي السياق، وقد وُجدتْ جلاميدُ صخرية وأعمدة منحوتة، وصل ارتفاعها إلى تسعة أمتار.[1]

بدأ الفنان اليمني برسم لوحاته على جدران الكهوف، وعلى الصخور بواسطة الأحجار الجيرية والسوائل الملونة التي يحصل عليها من بيئته، والرسوم التي وجدت تدل على أن هناك كفاءة تقنية غنية؛ حيث استخدم اللون الأبيض الناصع والأسمر الداكن والأصفر والأحمر. كما استخدم هباب الدخان الأسود بعد أن أضاف إليه الصمغ؛ مما جعله ثابتا. ومع تطور معارفه وأدواته بدأ بالحفر على الحجر أو المعدن أو الخشب، أو أي مادة أخرى يمكنه الحفر عليها، وذلك بطريقتين:

---

1 انظر: تاريخ شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام، عبد العزيز صالح. القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1990م، 59.

1. طريقة الحفر، أي نقش الصورة على المادة حفرا، بأن تجعلَ معالم الصورة محفورة حفرا عميقا نازلا في تلك المادة، كأن تحفر صورة إنسان أو حيوان حفرا عليها.
2. طريقة الحفر البارز، وذلك بأن يؤشر معالم ما يُراد رسمه، ثم يحفر ما حوله من سطح تلك المادة التي رسم عليها، فتبرز الصورة وترتفع بهذا الحفر عن سطح تلك المادة.[1]

وثمة حرف ذات طابع فني خالص، أو قامت على أساس فني، كصناعة الفخار والمشربيات والأواني المنزلية، وكذا الملابس بتصميماتها وزخارفها، وصناعة الحلي والأحجار الكريمة والفضيات والمذهبات وحياكة النسيج التي أشرنا إليها في فصل سابق، تعكس فيما تعكس الحالة المدنية والروح الفنية التي وصل إليها المجتمع اليمني قديما.

أما ما كان طابعه مقدسًا، أو له علاقة بشعور ديني ما فقد أبدع فيه الفنانون كثيرا، كالثور والوعل والنسر، وأيضا المباخر والمجامر والمذابح الدينية المقدسة وغيرها من الحيوانات، ونحتوا ذلك كثيرا، وعلقت صورها في المعابد ومداخل المدن، وفي الأماكن العامة، ولا تزال البيئة الأثرية إلى اليوم تعج بالكثير من هذه الإبداعات تحت الأرض على الرغم من تقادم الزمن، وعلى الرغم من النبش العشوائي الذي طال هذه المواقع وتم تهريبها من وقت مبكر. وتذكر بعض المصادر أن التحف الأثرية كان يتم ترحيلها أيام الخلافة الأموية إلى دمشق على العشرات من

---

1 أثر الحضارة اليمنية في تطور القيم الجمالية في المعابد اليمنية القديمة، 79.

الجمال كهدايا نفيسة لقصور الخلافة هناك، وأيضا أيامَ الخلافة العباسيّة إلى بغداد؛ حيث ازدانت بها القصور ومجالس الخلفاء والولاة؛ أمّا أكبرُ متاحفِ العالم فإنها تعجُّ بصنوفٍ شتى من هذه القطع الأثرية النادرة التي أصبحت ملكا لها من وقت مبكر، وحرمت منها البلاد من عقود، وأيضًا الخلافة الفاطمية في مصر وغيرها. ومع هذا فلا يزالُ تحت أديم الأرض الكثير من هذه النفائس النادرة.

وكان اليمنيون قديمًا يزينون مبانيهم بنقوش كتابية، أو برسوم تمثل بعض الحيوانات، مثل رؤوس الثيران والسباع والظباء وغيرها، أو بزخارف من أغصان الشجر والأزهار وأوراقها، أو ببعض الأشكال الهندسية الجميلة، وأحيانا كانوا ينقشون على الواجهات مشاهد من الحياة العادية كحراثة الأرض أو غير ذلك من أعمال الزراعة.[1]

أيضا المنحوتات على العملة والنقود، سواء العملة الذهبية أم الفضية أم البرونز بدقة متناهية، فقد نحت الفنانون اليمنيون صُورَ ملوكهم على تلك العملات، ويظهر بعضهم بشعر مسترسل، وبعضه مضفور، كما نجد لهم صورًا منحوتة على العُملات وهم على الخيول والمراكب الملوكية الخاصة، وعملات عليها صور لفارس يحمل بيده ترسا أو رمحا، وحوله رجال حاشيته، وعليهم الأسلحة، وأمامهم الجنود يرددون الزامل.[2]

---

1 تاريخ العرب القديم، توفيق برو، دار الفكر، ط:2، 2001من 95.

2 اليمن الخضراء مهد الحضارة، 218.

ومن التماثيل اليمنية التي اشتهرت وعُرفت كثيرا التمثالان البرونزيان اللَّذان تم اكتشافهما عام 1931م في منطقة "نخلة الحمراء" جنوب شرق صنعاء، وتم نقلهما إلى ألمانيا لترميمهما ودراستهما، وبعد الترميم والدراسة تبين أن التمثال الأول الكبير «238سم» للملك ذمار علي يهبر، والثاني «الصغير» لأحد أبنائه. والعجيب أن التمثال الأكبر مكتوب عليه باللغة والخط اليوناني أن الفنان «فوكاس» أنجز هذا التمثال، أما الثاني فبالنقش السبئي أشار إلى مساعد الفنان في عملية صناعة التمثال «لحي عم». ويرجع تاريخ التمثالين إلى القرن الثالث الميلادي. وهذا يعني أن عمليّة استقدام فنية قد تمت بين اليمنيين واليونانيين للاستعانة بتصميم التمثال ونحته على الأرجح، لأن اليونان في تلك الفترة كانت على قدرٍ عالٍ من الشهرة الفنية والإبداعية في هذا الجانب، على الرغم من وجود تماثيل أخرى قبل ذلك من تصميم يمنيين وعملهم.[1]

ولقد نال «الوعل» نصيب الأسد من الوحدات الزخرفية؛ لأنه من أكثر الأشكال التي وجدت، وكان يُصوَّر في كثير من الأحيان وهو رابض في مجموعات أو في وحدات، تشمل كل وحدة مجموعة من هذا الحيوان. كان كل واحد منها يشملُ مربعًا قائما بذاته، وكانت القرونُ تبرزُ كبيرةَ الحجم، وتقويسها أكثر مما في الواقع، حتى يستطيع أن يمثل تلك الدائرة في قرني هذا الحيوان، والتي هي

1 انظر: تاريخ الممالك القديمة في جنوبي الجزيرة العربية، كلاوس شيبمان، ترجمة: د. فاروق إسماعيل، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، 2002م، 156.

الهدف الرئيس من استخدامه، كأحد رموز القمر. وقد كانت هذه الحيوانات تُنحت دائما من الأمام، وكان النحتُ مختصرا، فالوجوه كانت تميزها ملامح عامة هي التي هي الصفات الرئيسة في هذا الحيوان، والعيون بارزة، والوجه يمتاز بالاستطالة، وهذا الفن كان من الفنون الأوسع انتشارا في اليمن القديم.[1]

كانت الزخرفة على الجدران، أو كأفاريز تحيط باللوحات والجدران واحدة من أهم موضوعات النقش. ولقد استخدم الفنان عدة عناصر للزخرفة، وربما كانت معظم هذه اللوحات دينية. وكان من أهم العناصر التي استخدمت في الزخرفة حيوان الثور والوعل، والتي عرفنا أنها كانت تستعمل للزخرفة على الجدران إلى جانب الألواح التي ربما كانت تُستعمل كألواح نذرية. وهناك لوح في متحف القسطنطينية نجد عليه تماثيلَ للوعول إلى جانب الثيران. إلى جانب ذلك هناك طرازٌ منتشرٌ في النقش الزخرفي اليمني، وهو الذي يحتوي على مجموعةٍ من الحيوانات الأسطورية التي تواجه نخيل البلح. هذه المخلوقات تُمثل بجسم أسد وجناحي طائر ورؤوس آدمية. وكانت في العادة تُنقَشُ والأرجل الخلفية على الأرض، والأمامية تستند على جذع شجرة. وهناك آخر إفريز في نقش غائر، وُجد في "تمنع" نرى فيه أسدين مجنحين، يأكلان من ثمرة شجرة، وكان هذا الإفريز متتابعا، والأسدان يقفان منعكسين، وأرجلهم الأمامية تستند على الشجرة، ويُحتمل أيضًا أنها شجرة البلح. إلى جانب ذلك

---

1 انظر د. أبو العيون بركات، مجلة الإكليل، عدد: 1، السنة السادسة، 1988م، 82.

فقد وُجدت الوعول وهي تقف أيضا وأرجلها الأمامية مستندة على شجرة، وهي أيضا شجرة نخيل البلح، ولكن لا يوجد بها ثمار، ويقولون: إنّ هذه الشجرة رمزٌ للحياة الطويلة، ولقد وُجد هذا الرمز في كتب دياناتِ الشرق القديم، فنجدها مثلا في الديانة المصرية القديمة، التي يُحتمل أنها كانت تُمثّل بشجرة «الجميز» التي هي من أطول الأشجار عمرا في مصر، وربما أن الفنان اليمني أخذ النخلة كرمزٍ لشجرة الحياة، وذلك من تأثير البيئة؛ لأن نخيل البلح هي الشجرة الأكثر حياة وذات عُمر طويل؛ لذا رمز بها إلى شجرة الحياة. وقد حظيت على مر العصور ومختلف الأديان بتقدير الإنسان لها، وجعلها في مكانة قريبة إلى نفسه، إلى جانب هذه العناصر الحيوانية، فقد استخدم الفنان العناصر النباتية، وأهم هذه العناصر هي ورقة العنب، وهذا ليس بجديد على الفنان اليمني؛ لأن اليمن تكثر بها زراعة الكروم إلى الوقت الحالي، ومثل هذه الزخرفة أقرب إلى طبيعة الفنان؛ لأنه من البيئة التي يعيش فيها.[1]

ولقد كان للمرأة أيضا نصيب في هذه اللوحات النذرية، ففي المتحف الوطني بصنعاء لوحة مثلثة، عليها سيدة في نقش بارز، ترفع يدها اليمنى أيضا إلى أعلى؛ أما اليسرى فتقبض بها، إما على كأس، أو منديل. ومن الملامح العامة للسيدات التي نُقشت

---

1 نفسه، 83.

على هذه اللوحات نجد أنها تميل إلى البدانة المبالغ فيها، وكانت عادة تُنقش من الأمام، وتمثل وهي تلبس كامل زينتها.[1]

وهناك لوحة من مارب يُحتمل أنها كانت موجودة فوق عَتبة باب قصر، أو معبد، وهي تشتمل على نقش مثلث عليه سيدة تجلس بين أغصان الكروم، ومن فوقها أيضا إفريز من أوراق، يعلو هذا الإفريز نقشٌ يمثل حيوانا خرافيا، نصفه الأمامي على شكل فهد، وجسمه على هيئة ثعبان، وذيله على شكل ذيل سمكة، وفوق هذا الحيوان طفل، ربما يقوم بترويضه.[2]

وثمة العديد من التماثيل النصفية والمنحوتات الأخرى التصويرية، سواء للإنسان أو للحيوان أو للنبات، أو مسكوكات نقدية، تحكي وضعًا خاصًا أو إشارة ما لهذا التصوير.

وفي العهد الرسولي كان فنُّ الزخرفة لجدران المباني وسقوفها بالمعادن الثمينة، أو الكتابة بمائها من الحرف التي لاقتْ رواجًا آنذاك؛ حيث كانت هذه المواد تعالج وفقًا لنظم دقيقة، استوعبوها وسخروها في أعمالهم الحرفية والزخرفية؛ فالزخرفة بماء الذهب، والكتابة به، وتزيين المجلدات إنما كان يتطلب من الحرفي مهارة فائقة ودقة متناهية في المعايير المطلوبة، حتى يصلَ إلى صناعة مادته على أكمل وجه، بأخذ مقادير محددة الوصفات والكميات، ومعالجتها بأساليب غاية في الدقة والإتقان، للحصول

---

1 نفسه، 86.

2 جاكلين بيرين، الفن في منطقة الجزيرة العربية، في فترة ما قبل الإسلام، مجلة دراسات يمنية، العددان: 23، 24، 1986م، 33.

على مادة ذهبية، تُطلى بها جدران الأواني الثمينة، وتزين بها سقوفُ منازل السلاطين والأمراء وأثرياء اليمن، وتكتب بها عناوين الكتب والمجلدات التي كان يدخرها الملوكُ والسلاطين من بني رسول في خزائن قصورهم ومكتبات مدارسهم وجوامعهم، ويتباهى في اقتنائها أثرياء اليمن ووجهاؤها.[1]

وتُعتبر قلعة العامرية برداع آية من آيات الجمال والفن المدهش الذي توارثه اليمني خلفا عن سلف، رغم الأذى الذي تعرضت له في حروب الطاهريين مع آل شرف الدين، ورغم الإهمال الذي لاقته بعد ذلك، وأيضا جامع الأشرفية بتعز، وغيرهما.

---

1 انظر: أحوال اليمن السياسية والاقتصادية والاجتماعية في ظل دولة بني رسول، قايد عثمان غالب، أطروحة دكتوراه، جامعة البصرة، 285.

الغناء والطرب

الغناء جزء من الفن، وقرين العزف غالبا، وهو لزيم المجتمعات المترفة أكثر من المجتمعات البدائية، كما يرى ابن خلدون باعتباره صناعة "يحدث في العمران إذا توفّر وتجاوز حد الضّروري إلى الحاجي، ثم إلى الكمالي، وتفنّنوا فيه، فتحدث هذه الصّناعة، لأنّه لا يستدعيها إلا من فرغ من جميع حاجاته الضّروريّة والمهمّة من المعاش والمنزل وغيره، فلا يطلبها إلا الفارغون عن سائر أحوالهم تفنّنا في مذاهب الملذوذات".[1]

ولما كانت اليمن مهد الحضارات الأولى، وعلى قدر كبير من التمدن والتحضر، فمن الطبعي أن يأخذ الغناء مكانه من بين مظاهر الترف الاجتماعي التي يعيشها الناس. ونلمح بعض تلك المظاهر في بعض المجسمات اليمنية القديمة لفنانات يمنيات في كامل حسنهن وزينتهن، كمجسم لامرأتين على لوحة، إحداهما تضع على خدها آلة طرب ذات أوتار مشدودة، وهي تعزف على الأوتار بانسجام تام، والأخرى تمسك بمقبض آلة طربية أخرى مستديرة الشكل، ذراعها اليمنى مرتفعة، أي أنها في لحظة الضرب على الآلة الطربية.

يلاحظ أيضا نوع ملابسها التي تعكس حالة من الترف الفني والمادي معا، كعادة الفنانين والفنانات الذين يتميزون بملابسهم، وبمظاهرهم، وهو انعكاس للواقع الاجتماعي بشكل عام.

---

1 مقدمة ابن خلدون، 538.

وفي شاهدٍ أثري آخر من المرمر، من العصر السبئي نجد فيه مجسمًا لسيدة تلعب على القيثارة، وتحتها سيدتان تجلسان على سرير، إحداهما تعزف على قيثارة، والأخرى تستمع لها. ولحضور الغناء والموسيقى والعزف في المجتمع اليمني قديمًا توارث اليمنيون العديدَ من الآلاتِ الفنيّة والطربيّة، كالعُود والدف والقصبة والمزمار والرباب والطنبور، إلخ.

ولا نكادُ نجد زمنًا مُعيّنًا أجمع عليه كلُّ المؤرخين لنشوء الغناء، أو مكانًا بعينه، إنما تكاد تُجمع المصادرُ أن الغناءَ من عهد عاد، كما ذكر القلقشندي: "فإن الغناء معهود من عهد عاد، حتّى كان من جملة مغنّياتهم الجرادتان اللتان يضربُ بهما المثل فيقال: "غنّته الجرادتان".[1]

---

1 صبح الأعشى للقلقشندي 1/434. والجرادتان: قينتا معاوية بن بكر، أحد العماليق. وإن عاداً لما كذبوا هوداً عليه السلام توالت عليهم ثلاث سنوات لم يروا فيها مطراً فبعثوا من قومهم وفداً إلى مكة، ليستسقوا لهم، ورأسوا عليهم قيل برعنق، ولقيم بن هزال، ولقمان بن عاد. وكان أهل مكة إذ ذاك العماليق، وهم بنو عمليق بن لاوذ بن سام، وكان سيدهم بمكة معاوية بن بكر. فلما قدموا، نزلوا عليه؛ لأنهم كانوا أخواله وأصهاره فأقاموا عنده شهرًا. وكان يكرمهم والجرادتان تغنيانهم، فنسوا قومهم شهراً، فقال معاوية: هلك أخوالي، ولو قلت لهؤلاء شيئاً ظنوا بي بخلاً، فقال شعراً وألقاه إلى الجرادتين فأنشدتاه، وهو:

ألا يا قيل ويحك قم فهينـم ... لعل الله يبعثهـا غمامـــا
فيسقي أرض عاد إن عـادا ... قد امسوا لا يبينون الكلاما
من العطش الشديد فليس ترجو ... لها الشيخ الكبير ولا الغلاما
وقد كانت نساؤهم بخيـر ... فقد أمست نساؤهـم أيامى
وإن الوحش يأتيهم جهـارا ... ولا يخشى لعاديٍّ سهامـا
وأنتم ههنا فيما اشتهيتـم ... نهاركم وليلكم التمامـا
فقبح وفدكم من وفد قــوم ... ولا لقوا التحية والسلامـا

فلما غنتهم الجرادتان بهذا، قال بعضهم لبعض: يا قوم إنما بعثكم قومكم يتغوثون بكم. فقاموا ليدعوا.

وتشير المصادر التاريخية إلى أن اليمن عرفت الغناء والموسيقى والرقص من وقت مبكر، ووُجدت بها الآلات الموسيقية المختلفة في الحضارات السبئية والمعينية والحميرية قبل الميلاد، وشوهدت نقوش كثيرة للآلات المستخدمة تعود إلى تلك الحقب، وبذلك فإن الغناء اليمني يعد من أقدم الفنون الغنائية منذ الأمم البائدة.[1]

ويكاد يُجمع المؤرخون على أنَّ الرعيلَ الأول من العرب المهاجرين من بلاد العرب الجنوبية بدأ يتحرك نحو القرن الثاني الميلادي؛ لذا بدأت الموسيقى العربية تزدهر وتنمو في مناطق ثلاث: سوريا والعراق وغرب الجزيرة العربية، قادمة من جنوب الجزيرة، ولا تخلو المصادر التي تؤرخ للموسيقى العربية من ذكر اليمن ودور أبنائها في صناعتها، ولعل المستشرق البريطاني «هنري فارمر» قد خلص إلى القول بأن العرب في ممالك جنوب الجزيرة العربية بلغوا المراتب السامية التي بلغها الساميون من قبلهم في مجال الموسيقى.[2]

وكما تظهر النقوش الأثرية وكتابات المؤرخين، فإن اليمنيين القدماء عرفوا آلة العود منذ ما قبل الألف الأول قبل الميلاد، وساهمت الهجرات اليمنية، الحضرمية تحديداً، في انتشار «القنبوس» في دول شرق آسيا وتركيا والهند وشرق أفريقيا،

---

1 د. فارس البيل، الغناء العربي، هل نشأ في اليمن، يمن مونيتور، على الرابط:

http://www.yemenmonitor.com/WriterArchive?aname=%D8%AF.%20%D9%81%D8%A7%D8%B1%D8%B3%20%D8%A7%D9%84%D8%A8%D9%8A%D9%84

2 نفسه.

والقنبوس تسمية محلية لآلة العود اليمني القديم المسمى بـ"الطربي" في صنعاء والقنبوس في حضرموت، وتظهر هذه الآلة في النقوش الأثرية اليمنية المكتشفة، ومنها نقش لامرأة تمسك بآلة العود التي ميزت الفن الغنائي في صنعاء لعهود طويلة.[1]

وقد عُرف بعض ملوك اليمن بالغناء واشتهروا به، كالملك «ذي جدن»، وهو قيل من أقيال حمير، وَهُوَ عَلَسُ بنُ يَشْرَحَ بنِ الحارِثِ بنِ صَيْفِيِّ بنِ سَبأ جَدُّ بِلْقِيسَ، وَهُوَ أَوَّلُ مَن غَنَّى باليمنِ، ولذلِكَ لُقِّب بسَبَبِه لأَنَّ الجَدَنَ حُسْن الصَّوْتِ.[2]

يقول المسعودي: وكان أول من غَنَى من العرب الجرادتان، وكانتا قينتين على عهد عاد لمعاوية بن بكر العملقي، وكانت العرب تسمي القينة: الكرينة، والعود: المزهر، وكان غناء أهل اليمن بالمعازف وإيقاعها جنسا واحدًا، وغناؤهم جنسين: حنفيا، وحميريا، والحنفي أحسنهما، ولم تكن قريش تعرف من الغناء إلا النصب.[3]

ولهذا فحين أشار القرآن الكريم إلى الغناء في آخر سورة الفجر تكلم بلغة أهل اليمن في قوله تعالى: (أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ

1 نفسه.

2 تاج العروس من جواهر القاموس، محمد بن محمد بن عبد الرزّاق الحسيني أبو الفيض، الملقّب بمرتضى الزَّبيدي (المتوفى: 1205هـ)، مجموعة من المحققين، دار الهداية، د. ت، 349/ 34.

3 مروج الذهب، 4/177.

وَاعْبُدُوا) فالسمود: يعني الغناء واللهو في لغة حمير. ويقال للقينة: اسمدينا، أي غنينا.

يقول المستشرق الألماني فارمر: وفي بداية التاريخ المسيحي ظهر حكامٌ سبئيون من بني همدان في مأرب. وفي القرن الرابع كان ملوك سبأ ينتسبون إلى حِمْيَر، تلك القبيلة التي ظلت حاكمة حتى عام 425م، وازدهرت الموسيقى والشعر، وينتمي كثير من شعراء المفضليات والحماسة للعنصر الجنوبي، وإن لم يظهر من هذه الأنحاء أحدٌ من شعراء المعلقات "عاش الأعشى في نجران"، ونقرأ عن تُبَّع يُسمى: اليشرح، ويلقب: ذو جدن، وحمل "تبع الأخير" علس بن زيد 525م هذا اللقب أيضا.[1]

وينسب الفنان محمد مرشد ناجي في كتابه "الغناء اليمني القديم ومشاهيره" إلى الموسيقي العربي الصادق الرزقي قوله: "وإذا علمنا أن العرب سكان اليمن والحيرة وحضرموت وسبأ وغيرها قد أوتوا من الذلاقة وصفاء الصوت وحسنه درجة سامية، وعرفنا منزلة هؤلاء من الشعر وتقاسيمه، أيقنا أن العبريين على قدمهم -وهم الذين ضارعوا العرب في الأعصر القديمة- لم يتقدموهم في صوغ الألحان والتغني بها".[2]

واحتفظ اليمنيون بأنماط غنائهم المتعددة، حتى انتقلوا إلى الأندلس إبان الفتح الإسلامي، ونقلوا معهم لونًا جديدًا من

---

1 تاريخ الموسيقى العربية، هنري جورج فارمر، ترجمة حسين نصار، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2010م، 9.

2 الغناء اليمني القديم ومشاهيره، محمد مرشد ناجي، ط:1، 1983م، د. د. 30.

الغناء، عُرف بالموشحات الأندلسية، أخذت صدى واسعًا، وتم تطويرها هناك، وكانت حالة "حُمينيّة" في اليمن، أي شعر وسطي، بين العامية والفصحى؛ وهو أسلوب في الشعر الغنائي، تفرد به اليمنيون، كثيرًا ما يتضمن البيت التوشيح والتقفيل، والتي قد تكون بإيقاعاتٍ مختلفة؛ لاسيما وقد كان اليمنيون هم قوامُ الفتح الأندلسي، ويشكلون نسبة كبيرة من العرب الذين بقوا هناك في الأندلس بعد الفتح.

ومن يتأمل في الموسوعة الأدبية والفنية "الأغاني" لأبي الفرج الأصفهاني يجد إشاراتٍ مهمةً وذات دلالات علمية كبيرة في هذا الباب، وهو يتحدث عن طويس، والأصوات الثمانية اليمنية التي انتقلت من اليمن إلى بلاد الحجاز، ومنها تناسلت بقية الأصوات الأخرى وتطورت منها، كما تطورت بقية أوتار العود الثلاثة عن الأربعة الأوتار اليمنية الأصلية.

ولهذا تنوع الغناء اليمني تنوعا باذخا منذ قديم الزمن وإلى اليوم، فقد أبدع اليهود في غنائهم منذ قبل الإسلام، ولا يزالون، ونقلوا هذا التراث معهم إلى تل أبيب في أثناء عملية "بساط الريح" منتصف القرن الماضي. كما أن للصوفيين نمطهم الخاص في الغناء والسماع، وغيرهم، وهي كثيرة، كالموشح الصنعاني أو البالة في المناطق الوسطى وصنعاء، والدان الحضرمي، والإيقاع اللحجي، إلخ.

وتُظْهِرُ بعضٌ من اللوحات النقشيّة القديمة التي ترجع إلى مرحلة ما قبل الميلاد صورا لفنانين يمنيين في حالة طرب فني،

كما في لوحة في المتحف الوطني بصنعاء لصورة فنان يجلس على كرسي مرتفع، يتوسط صالة مجلسه، وهو يحتضن العود بصورته القديمة ويغني، وإلى جانبيه اثنان مما يسمى بالكورال.

وقد تكلم المستشرق «هانز هولفريتز» صاحب كتاب اليمن من الباب الخلفي الذي زار اليمن في ثلاثينيات القرن الماضي، عن الموسيقى اليمنية؛ على الرغم من بدائية الحياة العامة في اليمن خلال تلك الفترة، يقول: "وتختلفُ موسيقى الجنود اليمانيين عن الموسيقى العربية المألوفة، وعن أغاني البدو العادية، ولموسيقاهم التي اجتذبت وأفرحت الكثيرين من الذين يجهلون الموسيقى الشرقية بعض المميزات الخاصة، ففيها تنوع في اللحن، وانتقال في الدرجات الموسيقية. وقد تمكنتُ من أن أحملَ معي أكثر من مئة تسجيل لموسيقى الجنوب العربي".[1]

1 اليمن من الباب الخلفي، هانز هولفريتز، تعريب: خيري حماد، المكتبة اليمنية للنشر والتوزيع، صنعاء، ط:3، 1985م، 124. وقد ذكر الكاتب أيضا أن ثمة تشابها بين الموسيقى اليمنية وموسيقى البربر في بلاد المغرب العربي.

التاريخ الضائع والهوية المستلبة:

ما الذي جرى؟

في إطار تقسيم الدول ثقافيا وتاريخيا هناك دُولٌ طارئة أسستها الصُّدفُ السياسية أو الجيوسياسية، خاصة إبان تعملق أوروبا الأطلسية وهي القلب الإمبراطوري للعالم الحديث التي أعادت تقسيم كثير من البلدان وفقَ رؤاها ومصالحها الخاصة، وأضفت عليها بعد ذلك الشرعية السياسية، خاصّة مع بروز المنظمات الدولية الكبرى، «الأمم المتحدة أنموذجا». وهناك أيضًا الدولُ ذاتُ البُعدِ التاريخي والحضاري، كالصين والهند ومصر واليمن والعراق وسوريا وغيرها.

هذه الدُّولُ تستندُ في بنيتها الهُويّاتية إلى رصيدٍ تاريخيٍ، شكّلَ ثقافتها وفلسفتها وأخلاقها، وفقًا لمعطياتٍ محددة هي من نتاج الجغرافيا إلى جانب التاريخ وتفاعُلِ العقل الجمعي معهما. ورغم التقدم المهول اليوم فإنّ هذه الدولُ لا تزالُ مرتهنة في جزءٍ من ثقافتها إلى الرصيد القومي المتراكم الذي يتجلى في ملاحمها القومية المتوارثة، ويصعب، بل يستحيلُ، تجاوزه.

الصّين اليوم دولة تقنية رقمية، لكنها لم تنس كونفوشيوس، أو ملحمتها القومية "قوسار".

الحال ذاته في اليابان مع "البوشيدو".

الهند كذلك متقدمة؛ لكن جزءا من ثقافتها متشكلٌ من فكر بوذا وغيره، وفي «المهابهارتا» الهندية الروح الحضارية الهندية منذ آلاف السنين.

فارس "إيران" رغم دخولها الإسلام في القرن السابع الميلادي، وارتباطها بالعرب فترة من الزمن فإنها تعاملت مع الدين الإسلامي الجديد تعاملا سطحيا، كقشور، باعتباره ثقافة وافدة من الجزيرة العربية، وظلت مرتهنة لثقافتها القومية إلى اليوم؛ بل لقد استطاع الخراسانيون "فرسنة" بعض المفاهيم الدينية الجديدة، أكثر من «تأسلمهم»، ومن يتتبع المنابع الأولى للتصوف الإسلامي، بما اشتمل عليه من خرافات وتجديفات في بعض جوانبه يجدها تنتمي في أغلبها إلى الثقافة «الخراسانية»، معقل الهوية الفارسية.

اليونان كذلك، لا يزال الثالوث الفلسفي: «سقراط، أفلاطون، أرسطو» مصدر المهم لها إلى اليوم؛ بل لأوروبا كاملة، ولا تزال الإلياذة والأوديسا مادة علميّة وتاريخيّة إلى اليوم في أوروبا كلها، لا في اليونان فحسب. ومما يحسبُ لأوروبا أن ساعدت اليونان على تصدير موروثها للعالم كله، في الوقت الذي لم تجد اليمنُ من يساعدها على اكتشاف هويتها التاريخية، ناهيك عن التعريف بها. والواقع أن هناك من المحسوبين على اليمن واليمنيين من دمر هُويته عمدًا، وعن سابق إصرار!

مصر دولة حضارية يمثل لها إرثها الفرعوني مصدر اعتزاز إلى اليوم.

في منتصفِ القرن الهجري الثاني، وتحديدًا في 158هـ، الموافق 969 ميلادية، هاجرَت رؤوسُ ما يُسمى بالدولة الفاطمية «شيعية إسماعيلية» من سلالة أدارسة المغرب، ويُقال: إنّ أصلهم يعود إلى ديالمة الفرس الفارين من عدالة الدولة العباسيّة؛ لتؤسسَ لسُلالتها مجدًا للمستقبل، مستفيدة من عنصر المكان، وقاطعة صلتها بالخلافة العباسية القائمة، عكس ما كان سابقًا أيام الإخشيديين، وعكس ما كان لاحقا أيضا أيام الأيوبيين الذين ارتبطوا بمركز الخلافة القائم في بغداد. وهو تسللٌ يشبه تسللَ يحيى حسين الرسي وأتباعه الطبريين والديالمة إلى اليمن، أواخرَ القرن الهجري الثالث، فارين من عدالةِ الدولة العباسيّة القائمة، غير أنّ المصريين كانوا ينظرون إلى هذه السُّلالة جسمًا غريبًا محتلا، لا ينتمي إليهم ولا ينتمون إليه. فأغرقوهم بالثوراتِ المتلاحقة حتى قضوا عليهم نهائيًا، وأصبحوا أثرًا بعد عين. ومن يتتبع تاريخ الثورات المصرية الشعبية خلال سبعة آلاف سنة، منذ ابتداء الحضارة المصرية، وإلى اليوم لا يجد عهدًا من كل تلك العهود اتسم بالثورات كما اتسم به العهدُ الفاطمي الذي يكاد يكون كله ثورات، وهناك من كتب مؤلفا خاصًّا عن الثورات المصرية في العهد الفاطمي، ونظر المصريون لهذه السُّلالة نظرة ازدراء، إلى حدّ أن المصريين جعلوا من مقابر الفاطميين في مصر ساحاتٍ للنفايات والقمامات فترة طويلة من الزمن، ولم تُرفع عنها إلا في وقت لاحق.

وخلال فترة حكم الفاطميين لمصر الذي امتدّ إلى سنة 567هـ، 969: 1171م، أي قرنين وتسع سنوات لم يتشيع المصريون أو يعتنقوا دينَ هذه الشرذمة الكهنوتية التائهة؛ بل نبذوهم وأغرقوهم بالثورات، كما فعل المسيحيون المصريون الأرثوذكس قبل ذلك والذين رفضوا ضغوطات المقوقس بناء على تعاليم هرقل الجمع بين الأرثوذكسية المصرية والمذهب الجديد الذي أراد فرضه من خارج بيئتهم وثقافتهم.

في مصر التي لم تنقطع حضاريا عن هويتها وتاريخها شكل الوعيُ العام الجمعي ضمانة قوميّة لها تجاه الغُزاة «من الداخل» إذا ما استعرنا المصطلح البردوني، والتفَّ الشعبُ كاملا حول صلاح الدين الأيوبي الذي عمل على إزالة الورم الخبيث من وقتٍ مبكر ونكل بهم، فسلِمتْ مصر من شرورهم إلى اليوم، وهو ما لم يتيسر لبلدين مهمين ذوي حضارتين عريقتين في المنطقة، هما: اليمن والعراق، لهذا يدفعُ هذان البلدان الثمنَ غاليا اليوم، فيما مصرُ تعيشُ بسلام. ورحم الله الرئيس المصري الأسبق محمد حسني مبارك الذي كان يستخطرُ الشيعة في مصر كما يستخطرُ إبليس اللعين، فلم يسمح لهم في عهده كاملا بأي نشاط؛ لأنه يدرك بحدسِ السياسي المستبصر أنَّ هذه السُّلالة الخبيثة خطرٌ على أمن البلاد، فتعامل معهم بما تقتضيه مصالحُ مصر والمنطقة. وتخيلوا لو كانت مصر اليوم شيعية، فإنّ حالها لن يعدوَ حالَ العراق أو اليمن!

لكن ما الشأن مع اليمن؟! هذا هو سؤالُ الأسئلة حقا.

اليمن دولة عريقة ذات امتداد تاريخي أصيل، ويعدّها بعضهم أولى الحضارات الإنسانية التي تشكلت على وجه الأرض، تكتنز بموروث هائل لم يتم الإفصاح عنه حتى الآن.

وهي تختلف عن بقية الدول أو الحضارات الأخرى المذكورة، في قضية مهمة للغاية، إذ إن تلك الدول حافظت على هُويتها الحضارية، وبقيت متصلة بتاريخها وأمجادها؛ ذلك لأن الحضارة هي عملية متراكمة من البناء المتشكل عبر العصور والأزمنة، وليست وليدة عشية أو ضحاها، عدا اليمن فإنها مُنيت بقطيعة تاريخية، ولم تستفد من رصيدها القومي لأكثر من سبب، أهمها تعمُّد الدول الإمامية المتعاقبة في تقطيع أوصال وشرايين الاتصال منذ وقت مبكر، كاستراتيجية خبيثة للإحلال الخارجي، وهو ما تنبه له إمام اليمن أبو محمد الحسن بن أحمد الهمداني فكان بحق أول مؤسس للحركة الوطنية مطلع القرن الرابع الهجري، وقد استشرف بحدسه الذكي خيوط المؤامرة في لحظاتها الأولى، وتلاه بعد ذلك نشوان بن سعيد الحميري، وقد اتسعت الهوة قليلا. وكانت آخر هذه الصيحات صيحة الزبيري في القرن العشرين:

أرضُنا حميريةُ العرق ليست أرض زيديةٍ ولا شافعية

غير أن هذه الصيحة جاءت في الوقت الضائع، وبعد أن وقعت الفأس في الرأس، ثم إن الوعي العام الجمعي اليمني حقيقة لم يكن بمستوى الوعي العام الجمعي في مصر. للمصريين عقلٌ جمعيٌ استثنائي من بين كلِّ الشعوب، يستطيعون به تجاوز المعضلات الكبرى في كل أزماتهم السياسية.

التفَّ المصريون حولَ نخبتهم السياسية والثقافية، في الوقت الذي لم يفعل اليمنيون هذا؛ بل لقد سلّمَ بعض منهم رقابَهم للكهنوت الأرعن، متساقطين في طريق الوطن، وفي مسار البناء، كما سنوضح لاحقا.

في اليمن تعالتْ أصواتُ النذير، وارتفعت نداءاتُ التحذير بين الحين والحين، ابتداءً من الهمداني الذي تم اعتقاله وسجنه وربطه على حمار والطواف به بين القبائل؛ إمعانا في الإهانة من قبل نجل يحيى حسين الرسي، "الناصر أحمد"، لا لجرمٍ ارتكبه؛ إنما بتهمة تفضيل القحطانية على العدنانية! وانتهاء بالزبيري الذي تم اعتقاله من قبل الإمام يحيى ونفيه من قبل أحمد، متشردًا في أكثر من دولة، وحتى آخر إنذار اليوم من قبل بعض الأصوات الشبابية الجديدة التي لاقت ما لاقاه المصلحون والمجددون من أسلافها، ولا يزالون معتقلين في الداخل، أو مشردين في الأصقاع.!

لدينا قطيعة حضارية مع هويتنا وأمجادنا التاريخية منذ زمنٍ بعيد، ولدينا عقمُ أفكارٍ، فلم نستطع إنتاجَ البديل المناسب، وإن في حده الأدنى حتى بعد قيام ثورتي 26 سبتمبر و 14 أكتوبر. انقسمت النخبُ إلى يمينٍ ويسار. يمينٍ غارق في وهْمِ الخلافة واستعادةِ مجد قريش، ويسارٍ واهم، ساعٍ نحو ما يُسمى: "شيوعيّة العالم". وفيما بينهما قوىً وتياراتٌ أُخرى تائهة وغارقة بطبعها من نفس الشاكلة. وفجأة وجد الجميعُ أنفسَهم خارجَ المعادلة، وخارج سياق اللعبة؛ بل خارج سياق الوجود الحقيقي لكينونتهم الحضارية؛ لأنهم لم ينتموا لليمن أساسًا من وقتٍ

مبكر، نسوه أو تناسوه جميعًا في غمرة صراعاتهم السياسية والأيديولوجية، ووحدهم السُّلاليون من كانوا يدركون ماذا يريدون؟ وكيف يخططون؟!

نحنُ اليوم في أمسِّ الحاجةِ لاستعادةِ الذاتِ الحضاريّة، وبناء الهُويّة اليمنيّة من جديد، والتخلص من كثير من الأوهام التي صنعتها أصنامُ النخبة خلال العُقودِ الماضية، وشكلت جزءًا خاطئا من ثقافتنا للأسف. فهل يفعلها جيل اليوم؟!

هذا ما ستجيبُ عنه فصولُ المرحلةِ القادمة.

2

اليمن بلد التوحيد السماوي الأول

للإسلام مرحلتان اثنتان، أو تاريخان اثنان:

1. الإسلام قبل محمد صلى الله عليه وسلم، وهو إسلام جميع الأنبياء كما سنرى، وتعود جذوره الأولى إلى آلاف السنين قبل الميلاد. قبل إبراهيم وموسى وعيسى.

2. الإسلام المحمدي الذي "تمّمَه" وصححه محمدٌ صلى الله عليه وسلم، في بداية القرن السابع الميلادي. كما يقرر هو نفسه ذلك. "إنما بُعثتُ لأتمم مكارم الأخلاق".

عرفَ اليمنيون "الإسلامَ التاريخيَّ" قبل تنزُّل الدياناتِ السّماوية الثلاث: اليهودية والمسيحية والإسلام، من خلال كلمة التوحيد التي أوحى بها الله إلى أنبيائه الأُوَل: نوح وهود وصالح ولقمان، وغيرهم من الأنبياء الذين لا نعلمهم، وهؤلاء قبل ظهور الأديان الإبراهيمية بآلاف السنين؛ إذ يذكر المؤرخون أن حقبة هود عليه السلام تعود إلى الألف السابع قبل الميلاد، حسب إشارة المؤرخ الشّمَاحي في كتابه "اليمن الإنسان والحضارة"[1]؛ أي قبل نبي الله إبراهيم بخمسة آلاف سنة، وقبل نبي الله موسى بخمسة آلاف وخمسمئة سنة، وقبل نبي الله عيسى بسبعة آلاف سنة، وقبل نبي الله محمد صلى الله

1 انظر: اليمن الإنسان والحضارة، عبد الله بن عبد الوهاب الشماحي، منشورات المدينة، بيروت لبنان، ط:3، 1985م، 48.

عليه وسلم بسبعة آلاف وخمسمئة وسبعين سنة، على وجه التقريب.[1]

ينتسب اليمنيون إلى قحطان بن هود، وهو عابر بن شالح بن أرفخشذ بن سام بن نوح. وهو وارث العرب العاربة من قوم عاد الذين أهلكوا بريح صرصرٍ عاتية في صحراء حضرموت.

وقبل أن نتكلمَ عن وحدانية قحطان ابن نبي الله هود "عابر" عليه السلام، نود الإشارة أولا إلى أن دعوةَ أبيه هي دعوة التوحيد بالله عز وجل والإيمان به، وله سورة في القرآن الكريم سميت باسمه، وفيها فلسفة دعوته الإلهية التي دعا بها قومه:

(وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ. يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلاَ تَعْقِلُونَ. وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ. قَالُواْ يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ. إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهِ وَاشْهَدُواْ أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ. مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ. إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ. فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ

---

1 لا تجمع المصادر التاريخية على سنة ولادة ووفاة الأنبياء ما قبل عيسى عليه السلام، فلكل مؤرخ أو باحث رأيه، وما ذكرناه هو على سبيل المقاربة لا القطع.

بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ) هود: 50: 57.

كما يخاطبُهم أيضا:

(وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ* قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ* قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ* أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ* الأعراف: 65: 67.

وقبر نبي الله هود عليه السلام مشهود مَزُورٌ إلى اليوم في حضرموت. وهو رابع الأنبياء بعد آدم أبي الإنسانية، فإدريس، فنوح، ثم هود.

كذلك أيضا كانت دعوة نبي الله صالح عليه السلام (وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ). هود: 61.

قحطان والتوحيد

ورث الدعوةَ عن هود ابنُه قحطان؛ حيث تذكرُ المصادرُ التاريخية أنّ قحطان بن هود وصى بنيه قائلا: "إنكم لم تجهلوا ما نزل بعادٍ دون غيرهم حين عتوا على ربهم واتخذوا آلهة يعبدونها من دونه، وعصوا أمر نبيهم هود، وهو أبوكم الذي علمكم الهدى، وعرفكم سواء السبيل، وما بكم من نعمة

فمن الله، وأوصيكم بذي الرحم خيرا، وإياكم والحسد فإنه داعية القطيعة فيما بينكم، وأخوكم يعرب أميني عليكم وخليفتي بينكم، فاسمعوا له وأطيعوا، واحفظوا وصيتي واعملوا بها، واثبتوا عليها تُرشدوا".[1]

وتؤكدُ نصوصُ المسند أنّ اليمنيين كانوا موحدين "ذي سموي" و "الإله رحمن" من قبل أن تصل اليهودية والمسيحية إلى اليمن، ويبدو أنهم اهتدوا للتوحيد من تلقاء أنفسهم، بعد أن مروا بالديانة الوثنية البدائية، فالديانة الكوكبية التي تُعدّ المرحلة الثانية من مراحل التدين التي مر بها الإنسان وقد تطور عقله وإدراكه أكثر، وصولا إلى التوحيد وتعظيم "إله السماء" الواحد الأحد، كمرحلة أخيرة توَصَّل لها الإنسان، وقد قطع أشواطا من الشك، كما هو الشأن مع نبي الله إبراهيم عليه السلام الذي ألّه القمر أولا فالشمس، وأخيرا آمن بالله عز وجل إلهًا واحدًا لا شريك له.

وقد وردت نصوص مسندية ورد فيها اسم الإله "ذي سموي" التي تعني "صاحب السماء" أو "ذو السماء" المتفرد في أمره ونهيه.

---

1 تاريخ العرب قبل الإسلام، عبدالملك بن قريب الأصمعي، تحقيق: الشيخ محمد حسن آل ياسين، منشورات المكتبة العلمية، ط: 1، 1959م، 6. تذكر النقوش اليمنية القديمة العين الحاسدة التي رمزت لها ب: "ش ص ي"، وتعني حمل الضغينة على أحد، وتشير النقوش إلى دعاء الناس الإله ليجنبهم شرور كل عدو وحاسد. انظر: الحياة السياسية والدينية في اليمن القديم والحجاز، من القرن الرابع حتى السادس الميلاديين، علي صالح الكهالي، رسالة ماجستير، جامعة عدن، 2002م، 81.

والواقعُ أن الاسم "ذي سموي" كان قد عرفه اليمنيون القدماء واستعملوه بما يدل عليه من معنى "الوحدانيّة" في فترة متقدمة، بعضها أبعد زمانا في قدمها من زمنِ ظهور الديانات السماوية التوحيدية، ومن ذلك:

1. ما عثر عليه في منطقة همدان من نقوش، تروي نصوصها أن أصحابها إنما راحوا من خلالها يتقربون إلى الإله "ذي سموي"، وكان تدوين هذه النصوص قد تزامن مع تدوين نصوص نذرية أخرى، وُهبت للإله "تألب ريام" الخاص بهمدان، وذلك في فترة لم تكن عقيدة التوحيد قد ظهرت بعد، أو انتشرت في الأصقاع المترامية الأخرى، أو أن ملامح فكرتها على الأقل لم تكن قد عُرفت في الآفاق البعيدة.
2. ذلك النقش المُدوّن على لوحة برونزية صغيرة، عُثر عليها في موضع "هجر بن حميد" الواقع في نطاق دولة قتبان، ومن دراسة وتحليل هذه اللوحة من نص نقشي اتضح أنها كانت قد صُنعت في حوالي القرن الأول الميلادي، أي قبل أن تظهرَ الدياناتُ التوحيدية السماوية في اليمنِ بثلاثة قرون.[1]
3. كشفت نصوصُ المُسند في بعض المواقع الأثرية عن بعض أسماء الله الحسنى التي عرفها اليمنيون من قبل، مثل "سميع" و"عليم"، وذلك في نقش توسُّل وتضرُّع، نصه: "بحق عثتر وهوبسن والمقه وعليم وسميع، وبحق ذات بعدان،

1 انظر: دراسات في التاريخ الحضاري لليمن القديم، أ. د. أسمهان سعيد الجرو، دار الكتاب الحديث، 2003م، 144 فما بعدها.

وبحق شمس الملك تنوف".[1]، كذلك وجد الاسم "حكيم/ حوكم" وهو من أسماء الله الحسنى. وجاء ذكر الإله "س م ع" في عدد من النقوش اليمنية القديمة من دون لقب، فيُنعتُ به أو متبوعا، ونظرا لخلو خط المسند من التشكيل فيمكن أن يُقرأ اسم هذا الإله "سَمْع، سَميع، سامع، سماع، ويعني: شهادة/ وثيقة. وفي الجعزية نفس المعنى؛ لذا فاسم الإله يعني الشاهد أو الشهيد المطلع على كل شيء، وهي مادة لغوية، تعرفها كل اللغات السّامية، وعلى الأرجح أنه كان يُدعى سميعا.[2]

من كلمة التوحيد إلى توحيد الكلمة

انتشرتْ ديانة التوحيد اليمنية بصورة واضحة في الربع الأخير من القرن الرابع الميلادي، كامتداد سابق لها، وذلك بعد حوادث سياسية مهمة، جرت في جنوب الجزيرة العربية، فلم يأت القرن الرابع الميلادي إلا وجنوب الجزيرة العربية قد توحدت بقيادة شمر يهرعش، أول من حمل اللقب الملكي الطويل "ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنات"، وكان لا بد أن يرافقَ هذا التوحيد السياسي توحيدٌ ديني، والذي ظهرت

1 نفسه، 142. وانظر: نقوش مسندية وتعليقات، مطهر علي الإرياني، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، ط:2، 1990م، 123 فما بعدها.

2 انظر: آلهة اليمن القديم الرئيسة ورموزها حتى القرن الرابع الميلادي، دراسة آثارية تاريخية، محمد سعد عبده حسن القحطاني، رسالة ماجستير، جامعة صنعاء، 1997م، ص: 50. وقد ظهرت مملكة اسمها مملكة "سمعي" من اتحاد قبلي ضم: بلاد خولان وشمال الجوف وأرض بكيل القديمة.

مؤشراته في عهد "أبي كرب أسعد الكامل"، ولكن الطبيعة المختصرة للنقوش اليمنية القديمة لا تسمح لنا أن نقرر نهائيا ما إذا كانت هذه الديانة التوحيدية هي اليهودية أو المسيحية، وفقًا لما يراه المستشرق بيوتروفسكي.[1]

إن اتحادَ القبائل اليمنية المتعددة والواسعة في دولة واحدة، أو بالأصح تحت راية إمبراطورية موحدة لا شك أنه لاحِقٌ لتوحُّدها فكريًا؛ لأن الاتحاد الفكري والعقائدي سابقٌ للاتحاد السياسي، أو أنهما معا كفرسي رهان، على الأقل، وهو ما رأيناه لاحقًا عقب ظهور الدعوة المحمديّة، فقد كانت العرب متفرقة، ثم وحّدها بعد ذلك بكلمة التوحيد، ومن ثم الوحدة السياسية التي تأسست لاحقًا في دولٍ فحضارات، ابتداء من دولة صدر الإسلام في تبلوراتها الأولى، ثم الأموية، فالعباسية، وآخرها العثمانية.

تلك الوحدة العقدية السّماوية أسست للوحدة الاجتماعية والسياسية اليمنية، ومن ثم كان التوسع في كثير من البلدان التي وصلها اليمنيون قبل الإسلام.

لقد انفرد قدماءُ اليمنيين بعبادةِ هذا الإله "الرحمان" الذي لم يكن معروفًا بهذا الاسم لدى عرب الشمال إلا في وقتٍ لاحق، ما يشهد بأن هذا "المعبود" نابعٌ من أفكار دينيّة ذات طابع توحيدي يمني المنشأ، فقد بدأت عبادة هذا الإله في اليمن

---

1 ملحمة عن الملك الحميري أسعد الكامل، بيوتروفسكي، م. ب، ترجمة: شاهر جمال آغا، وزارة الإعلام والثقافة، صنعاء، 1984م، 68.

القديم قبل الميلاد واستمرت حتى نهاية عصر الحضارة اليمنية قبل بزوغ فجر الإسلام. ويبدو أن هذه الخصوصية اليمنية لكلمة "الرحمان/ الرحمن" قد ظلت عالقة في الأذهان إلى ظهور الإسلام، ولهذا جادل بعض المشركين الرسول صلى الله عليه وسلم بسبب ذكره للرحمن (قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ)؟ فأنزل الله عليهم: (قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيّاً مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى) ولقد ظل لكلمة الرحمن تمييز خاصٌ في القرآن الكريم والمأثور الشريف، وهو أمر لا يخفى على المتضلعين في العلوم الإسلامية.[1]

وقد بقيتْ بالرسم الحميري الذي يُسقط حرف العلة من وسط الاسم حتى اليوم.

وهكذا فإنَّ عبادةَ «الرحمن» تعدّ شكلا من أشكال التوحيد، وكانت واحدة من مظاهر التوحيد ضد الشرك وعبادة الأصنام وتعدد الآلهة والدعوة إلى إله واحد "الرحمن"، وبهذا يكون من الصعب علينا أن نرجع عبادة الرحمن إلى اليهودية أو المسيحية، فعلى الرغم من ارتباط هاتين الديانتين السماويتين بالرحمن، فإن "الرحمن" ظهر في نقوش لم تتصل بهما، وبذلك تكون عبادة

1 نقوش مسندية وتعليقات، مطهر علي الإرياني، مركز الدراسات والبحوث اليمني، ط:2، 1990م، 417، وانظر أيضا، تطور الحياة الفكرية لليمنيين القدماء، عبدالرحمن عمر عبدالرحمن السقاف، أطروحة دكتوراه، جامعة صنعاء، 2007م، 210.

"الرحمن" حسبما جاء في نقوش جنوب الجزيرة عبادة مستقلة عن اليهودية والمسيحية.[1]

ويعزز هذا الرأي ما ذهب إليه الباحث عزالدين كشار، بقوله: "إنّ التوحيدَ الإسلامي انعكاسٌ للتوحيد العربي الجنوبي، ونظرةُ التوحيد الإسلامي إلى الله نظرة عربية جنوبية".[2]

ويضيف: "ذلك يعني أنّ فكرةَ أو نظرةَ التوحيد كانت قد وُجدت في اليمن قبل اعتناق أهله للأديان التوحيدية اللاحقة بزمن بعيد، حتى أنّ أهل هذه الأديان قد استفادت منها، فكانت بالنسبة لها بمثابة المقدمة التي لا بد منها، كما كانت هذه الأديان امتدادًا طبيعيا متطورًا لهذه الفكرة الأولى بمضامينها التوحيدية المتطورة".[3]

وإلى هذا المعنى يُلمّح عباس محمود العقاد في سياق الحديث عن نبي الله إبراهيم عليه السلام ودعوته الإصلاحية التي أتى بها: وأصحُّ التقديرات أنه نشأ في أسرة حديثة عهد بالهجرة من شمال اليمن إلى جنوب العراق، وكانت هذه الأسرة مع الذين جاؤوا من "أرض البحر"، كما كان البابليون يُسمُّون العرب المقيمين على مقربة من خليج فارس.[4]

---

1 انظر: الصراع الديني في جنوب الجزيرة العربية من القرن الرابع حتى السادس الميلادي، ذكرى عبدالملك المطهر، رسالة ماجستير، جامعة صنعاء، 2003م، 26 فما بعدها.

2 اليمن دنيا ودين، عزالدين كشار، د. ت، د، د. 112.

3 نفسه، 112.

4 إبراهيم أبو الأنبياء، عباس محمود العقاد، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2012م، ص: 178.

إن في شِعرِ قس بن ساعدة الإيادي النجراني روح التوحيد الخالص قبل الإسلام، حين يتكلم عن البعث والنشور "يوم الصيحة" ولا شك أن فكر وثقافة قس بن ساعدة جزء من ثقافة مجتمعه، وأن صوته الشعري هنا تعبير عن ثقافة سائدة، إذ يقول:

يا باكيَ الموت والأموات في جدثٍ   عليهم من بقايا خزهم حرق

دعهم فإن لهم يوما يُصاح بهم   كما ينبه من نوماته الصدق

حتى يجيئوا بحالٍ غير حالهم   خلق مضى ثم هذا بعد ذا خُلقوا

أما خطبتُه الشهيرة فهي أشهرُ من أن نعيد تكرارها هنا. وهي ناطقة بالتوحيد والإيمان والبعث والنشور. وقِس بن ساعدة الإيادي النجراني اليماني هو أولُ من أظهر التوحيد في مكة قبل البعثة النبوية.

كلُّ دينٍ يوم القيامة عند الله إلا دين الحنيفية زور

وهذا زهيرُ بن أبي سلمى يشيرُ صراحة إلى التوحيد؛ مؤمنًا بالبعث والنشور، والحساب والعقاب، من قبل الرسالة المحمدية، بتأثيرِ التوحيد اليماني الذي انتشر في أرجاءِ الجزيرة العربية، يقول في معلقته:

فَلا تَكتُمُنَّ اللهَ ما في نُفوسِكُم   لِيَخفى وَمَهما يُكتَمِ اللهُ يَعلَمِ

يُؤَخَّر فَيوضَع في كِتابٍ فَيُدَّخَر   لِيَومِ الحِسابِ أَو يُعَجَّل فَيُنقَمِ[1]

1 تتبع الأب جرجس داوود الظاهرة الدينية في الشعر العربي قبل الإسلام في كتابه «أديان العرب قبل الإسلام ووجهها الحضاري والاجتماعي»، وإن لم يتعمق كثيرا في الظاهرة الدينية التوحيدية لعرب الجنوب.

هذه بعضٌ من ملامح التوحيد اليماني ومعالمه في عهوده القديمة، المُسمّاة عند بعضهم العهود البائدة، وما تبعها من العهود حتى فترة ظهور الإسلام، والتي انتشرت في أنحاء الجزيرة العربية، مع أن ما وصَلَنا من فكر وموروث هذه العهود هو الشيء القليل جدا، سواء منقوشًا على الأحجار في نصوص مسندية، ومخربشات أثرية، أو من أخبار الرواة وتدوينات المؤرخين. ولا شك أنَّ الكثيرَ من الدلائل والأسانيد الأثرية قد تعرضت للاندراس بفعل تقادم الزمن، وبعضها لا يزالُ مطميًّا، ورهنَ الإهمال حتى الآن.

وإذا كانت قد برزت بعضُ الوثنيّات بين عهدٍ وآخر من عهود التاريخ، فإنما يعود ذلك إلى طبيعة الانحرافات الدينيّة التي تطال الأديان، كل الأديان بلا استثناء، سواء الأرضية أو السماوية، بفعل اجتهادات «الأحبار والرهبان» الذين يجعلون من أنفسهم ممثلين للسماء، ولكل دين أحباره ورهبانه؛ بل وفقهاؤه الذين أساؤوا للدين من حيث أرادوا له النفع، ولذا تتالت الأديان، وكل دين ينسخ ما قبله، ليؤسس لشرعة جديدة، بعيدة عن تحريفات المبطلين وتزييفات الواعظين، وإلا لاكتفت الأمة عبر تاريخها بديانة واحدة ونبي واحد فقط. وقد تعرضت المعتقدات والأفكار اليمنية سابقا لبعض التزييفات والتحريفات عن أصلها "الوحدانية"؛ لكنها سرعان ما تعود إلى أصلها الحقيقي؛ لذا لا غرابة حين تنزلت شريعة الإسلام التي صدح بها محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم أن هبَّ اليمانيون زرافاتٍ ووحدانا أولَ القوم مستجيبين؛ لأنها

معتقدهم الأصل، ولم تكن فكرة التوحيد غريبة عنهم، في الوقت الذي كانت غريبة على بعض مجتمعات عرب الشمال الذين استغربوا مندهشين (أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً)؟!

وإلى هذا المعنى يشير الأديب الشاعر محمد إسماعيل الأبارة، شعرا، بقوله:

عبد الناسُ والأصنامـــــا   واليمانون لم ينيخوا هامـــا

عبدوا الشمس من سمو نفوس   كي يحثوا الإنسان أن يتسامى

ومضوا في البحث الدؤوب عن الله   بقلب عن الهدى ما تعامـــى

ثم لما جاء الهدى آمنـــــوا عن   فطرة وانبروا له أعلامــــا

ويعزو الدكتور جواد علي ظهورَ الشرك وتعدد الآلهة بين فينة وأخرى في بعض المجتمعات إلى عوامل طبعية وتاريخية وسياسية واجتماعية متفرقة زمانا ومكانا، مشيرًا إلى أننا نجد وجهة نظر الشعوب عن الآلهة أو الإله تختلف باختلاف ثقافتها ومستواها الاجتماعي، وللوضع السياسي دخلٌ كبير في الشرك وفي عدد الآلهة وفي شكل الدين، كذلك عامل الجوار والاتصال الثقافي الذي يؤدي إلى اقتباس الآلهة المجاورة، وقد تطغى الآلهة الجديدة على الآلهة القديمة.[1]

فالتوحيدُ فكرةً وشعيرةً وما استتبعه من بعض التشريعات الدينية كالنذور والكَفَّارات والصلوات والزكاة والحج بجميع أركانه، كل هذه طقوسٌ وممارساتٌ شائعة عرفها اليمنيون من

---

1 المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، 6/42.

قبل «الإسلام المحمّدي» كما أشرنا آنفا، وإن بصيغٍ وهيئاتٍ مختلفة جزئيا؛ إضافة إلى منظومة التشريعات السياسية والاجتماعية الأخرى؛ ولذا فقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "إنما بُعثت لأتمّمَ مكارمَ الأخلاق"، والتتميمُ استيفاءٌ في نقص، وليس خلقًا لعدم.

وكما يقول المفكر الإسلامي عباس محمود العقاد: "فالتوحيدُ لم يكن مجهولا قبل عصر إبراهيم، وكذلك ميزان العدل الإلهي، وكذلك عبادة الحق".[1]

وهنا نستطيع القول: إنه كما كانت اليهودية والمسيحية والإسلام امتدادًا لحنيفيّة إبراهيم عليه السلام (مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَّلاَ نَصْرَانِيّاً وَلَكِن كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) سورة آل عمران آية 67؛ فإن حنيفية إبراهيم نفسها امتدادٌ للتوحيد اليماني قبل ذلك الذي صدح به كلٌ من هود عليه السلام وبنوه من بعده، وكذا نبي الله صالح، في حضرموت من اليمن. وكل هؤلاء كانت دعوتهم التوحيد والإسلام قبل أن تظهر دعوة إبراهيم عليه السلام بقرون طويلة، وهي دعوة التوحيد وعبادة الله.

فهودٌ عليه السلام يخاطب قومه: (اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ) [الأعراف: 65]

---

1 إبراهيم أبو الأنبياء، سابق، 9.

ويخاطب نبيُّ الله صالح قومَه بذات اللهجة والخطاب: (اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ) [الأعراف: 73]

ولهذا خاطب الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ) [الأنبياء: 25]. وهؤلاء الرسل جميعًا قبل محمد صلى الله عليه وسلم، وجميعهم في اليمن، وجلهم دعوا للتوحيد.

إذن وبموجب الحقائق القرآنية فاليمنُ بلدُ التوحيد الإلهي الأول منذ آلاف السنين؛ ولهذا كانت البيئة اليمنية أخصبَ البيئات الدينية بدعوة محمد صلى الله عليه وسلم؛ لأن الفكرةَ ليست جديدة عليهم أساسًا، بل إنهم حاملوها الأوائل.

ليس هذا فحسب؛ لقد كان اليمنيون هم عمادُ الدعوة المحمديّة الجديدة في عصر صدر الإسلام؛ حيث نشروا هذه الدعوة في مختلف الأرجاء. في العراق والشام ومصر والمغرب وفارس وأذربيجان والأندلس، وغيرها. نشروها: فاتحين وولاة ومعلمين ورجال دين.

كان اليمنيون مستعدين نفسيًا لتقبل الفكرة التجديديّة التي لامستْ حالة الفراغ التي شكلتها الصراعاتُ السياسية، «الأقياليّة» في مرحلة الصراعات الداخلية، عقب غزوين خارجيين «الأحباش والفرس»؛ فكانوا يرون فيها استعادةَ ذاتهم الحضارية التي ارتبطت أساسًا بدعوة التوحيد منذ آلاف السنين قبل ذلك، ومعها تشكلت إمبراطوريتُهم التاريخية، فتماهوا مع الدعوة الجديدة، مخلصين لها، ومدافعين عنها، غير أنهم

اصطدموا بإبقاء الفرس عليهم من قبل سلطة المدينة أولا؛ لأنّ دعوةَ الإسلام عامة للناس كلهم، عربًا وفرسًا وتركا وحبشًا، وغيرهم، وهذا ما لم يستسيغوه في جملتهم، لمعاناتهم من الفرس قبل ذلك، فلهم مع الفُرس تجربة سلبيّة سابقة، ولأنه محتلٌ أولا وأخيرًا، ثم بالنزعة الاستعلائيّة القرشيّة ثانيًا، وقد استطاعوا التخلصَ من الأولى، فيما بقيت الثانية داءً تاريخيًا منذ ذلك التاريخ وإلى اليوم، كما سنوضح ذلك في الفصلِ القادم.

الدين في اليمن القديم رافعة الإبداع الجمعي

لقد كان الدينُ والتوحيدُ أهمُّ ركائزه الروحيّة رافعةً حضاريّة للبناء والإبداع عند اليمنيين القدماء، وكان الدينُ لغة الحياة العامة، من أجل شحذ الهمم وجمع كلمة الأمة التي حققت «الإبداع الجمعي» ببناء حضارة، هي من صنع المجتمع المتكاتف والمتآلف، المجتمع الذي ينتمي للفكرة الواحدة، بزعامة القائد الذي يمثل الخيط الناظم للكل، خلافا للمجتمعات البدائية التي تعيشُ ممزقة الأوصال، ولا تعرفُ الاجتماع أو الإبداع الجمعي؛ لأنّ للعقلية البدوية تفكيرها المختلف عن العقلية الحضرية، أي لقد كان الدينُ وسيلة للوحدة، من أجل البناء وتحقيق الرفاه الاجتماعي، لا هدفا لذاته يتصارع حوله الناس، فتلك المعالم والمآثر اليمنية العظيمة تقرر وبما لا يدع مجالا للشك أنها من صنع الجهد الجماعي الذي بنته وأشرفت عليه دولة مركزية قوية، لا مجرد إبداع فردي من صنع شخص أو قرية أو حتى قبيلة ما بمفردها.

وبحسب ابن خلدون فإنّ الهياكلَ العظيمة جدًا لا تستقل ببنائها الدولة الواحدة، والسبب في ذلك حاجة البناء إلى التعاون، ومضاعفة القُدَر البشرية، وقد تكون المباني في عظمها أكثر من القُدَر مفردة أو مضاعفة، فيبتدئ الأول منهم بالبناء، ويعقبه الثاني والثالث، وكل واحد منهم قد استكمل شأنه في حشر الفَعَلة وجمع الأيدي حتى يتم القصد من ذلك ويكمل، ويكون ماثلا للعيان، يظنه من يراه من الآخرين أنه بناء دولة واحدة، وانظر في ذلك ما نقله المؤرخون في بناء سد مأرب وأنّ الذي بناه سبأ بن يشجب، وساق إليه سبعين واديا، وأعاقه الموت عن إتمامه، فأتمه ملوك حِمير من بعده.[1]

فالإيمانُ وعموده التوحيد كان يمانيًا من قديم الزمان، وكذلك الشأن مع الفقه، بما هو منظومة تشريعية اجتماعية، وكل ذلك عرفه اليمنيون من قديم الزمن، وإليهما أشارَ النبي بهذا القول. "الإيمان يمان والفقه يمان". ولعل قادم الأيام قد يكشفُ عن المزيد من نصوص المسند التي لا تزال رهنَ الطمي، ورهن الإهمال والعبث، فتضيف جديدًا إلى ما تم اكتشافه في هذا المجال، ولا شك أن ما تبقى الكثير والكثير، في أرجاء اليمن التي لا تزال بكرًا، ولما تُكتشف بعد.

---

1 مقدمة ابن خلدون، عبدالرحمن بن خلدون، ضبط ومراجعة: خليل شحادة وسهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 2001م، 431.

الفقه اليماني

حين نتأملُ في طبيعة الطقوس والشعائر الدينية لدى اليمنيين القدامى نجد أنها قد مثلت الصيغة الأولية للطقوس والشعائر التي جاءت في الشرائع السماوية الإبراهيمية، على تفاوت بينها، وهي تعكس فيما تعكس الروح الحضارية العريقة، ومدى تغلغل الروح الدينية في وجدانهم الجمعي. وقبل أن نتطرقَ إلى تفاصيل تلك الشعائر الدينية لدى اليمنيين القدماء، نتكلم أولا عن المعابد الدينية من حيث هندستها وتقديسها والاعتناء بها.

المعابد

المعابد: جمع معبد، وهو المكان المخصص لممارسة الطقوس/ الشعائر الدينية؛ إذ اكتسب قدسيته منها، ونال الكثير من الاهتمام مكانا وتصميما وعناية.

وقد أُطلق على المعبد اليمني قديما كما جاء في النقوش الاسم حرم أو محرم الذي هو بمعنى المُقدّس. وقد ورث العرب جميعا في جزيرتهم فيما بعد هذا الاسم من قدماء اليمنيين، حتى غدا في العصور المتأخرة واللاحقة وفي كنف الإسلام بالذات وصفًا يُلازمُ أماكنَ العبادة المشهورة، ويُطلق على الرحاب الإسلامية المقدسة، وعلى أربعة أشهر بعينها من السنة الهجرية، وهي محرم ورجب وذو القعدة وذو الحجة. فهذا التنزيل الحكيم يطلق على مكة المكرمة وما حولها "حرما" (أَوَلَمْ

نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ)، كما وصف الكعبة المشرفة بالبيت الحرام، والبيت المحرم (عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ) وتارة يصفها مع الحرم المكي عموما بالمسجد الحرام (فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ).[1]

ولأهمية المعبد وقداسته فقد كانت العناية به من حيث اختيار مكانه خارج سور المدينة أو القرية في مكان نظيف ومرتفع، وله سورٌ يحيط به، تجلب إليه الهدايا والعطايا، ويتم بناؤه بصورة فريدة عن بناء البيوت والمساكن، حتى أصبح أشد تركيبا وأجمل تشييدا وأوفر جمالا، كما استجابت هندسة البناء لمتطلبات الطقوس والشعائر الدينية المختلفة؛ إذ راحوا يقيمون الأعمدة الفخمة حتى صار المعبدُ في تصميمه البنائي وشكله الهندسي مربعًا أو مستطيلا، وإذا به يغدو في هيئته الفنية شكلا معماريا آخر في نهاية المطاف.[2]

وترتبط بالمعبد ملحقاتٌ عدة، بعضُها جزءٌ رئيسٌ منه مثل قدس الأقداس «المحراب» وبعضه ملحق ثانوي، نوردها هنا بأسمائها التاريخية، على النحو التالي:

1. مختن، وهو الموضع الذي كان يُمارس فيه نوعٌ من الطقوس الدينية الأساسية في المعبد.
2. صرح/ صرحت، وهو جزء مهم وأساسي من المعبد، ولعله كان موضعا واسعا مهيبا، يتصدر المعبد من الداخل،

---

1 دراسات في التاريخ الحضاري لليمن القديم، أ. د. أسمهان سعيد الجرو، 144.

2 نفسه، 152.

يجتمع فيه الناس لتأدية الشعائر الدينية بصورة جماعية ومهيبة.

3. بيت، ويعني معبدا خاصا بكهنة المعبد، أو مستوطنة الكهنة في المعبد.
4. مسأل، على وزن "مفعل" من السؤال، وهو المكان الذي يكون للاستخارة وسؤال المعبود، والتضرع إليه.
5. محراب، وهو أقدسُ أقسام المعبد الأخرى على الإطلاق، وأخصها بعبادة الإله فيه، ولذلك كان يُطلق عليه «قدس الأقداس».
6. مذبح، وهو الموضع المخصص في حرم المعبد، لذبح الأضاحي التي توهبُ قرابين للإله.
7. مَطْهَر، هي بركة ذات ماء نقي، دائما ما كان بناؤها يُطلى بالنحاس؛ أما موقعها فغالبا ما كان يقع وسط المعبد، وكان المتعبدون يلجأون إليها لممارسة الطهارة القدسية فيها، وإزالة ما يعلق بهم من أدران وأوساخ، ليتمكنوا بعد ذلك من أداء شعائرهم الدينية، وهم على الطهارة المثلى، ولذلك أطلقوا عليها «المَطْهَر».[1] وقد توارث اليمنيون طريقة تصميم البرك الملحقة بالمساجد من تلك الحقبة إلى اليوم في كثير من مناطق الريف اليمني. كما أن لفظة «مَطْهَر» مستخدمة في كثيرٍ من مناطق الريف اليمني إلى اليوم.

---

1 نفسه، 154، وانظر أيضا: أثر الحضارة اليمنية في تطور القيم الجمالية في المعابد اليمنية القديمة، منال سعد سالم محمد، رسالة ماجستير، جامعة عدن، 2001م، 51.

ولا غرو في أنّ أهميّة المعبد لم تكن تكمن عندهم فحسب في كونه مكانا مقدسا للعبادة وممارسة الطقوس والشعائر الدينية المختلفة؛ وإنما كانت المعابدُ تقوم بوظيفة المراكز الإدارية؛ إذ كانوا يحتفظون فيها بالسجلات الخاصة بالعقارات ومساحات الأراضي، وبسندات تحصيل ضريبة العشر المقدس، وبنسخ من المراسيم والعقود العامة والخاصة التي نراها منحوتة التدوين على جدران المعابد.

حرمة المعابد

كان للمعابد حرمتُها المقدسة التي لا يجوز لأحد تجاوزها أو إتيان ما يخل بهيبتها وإجلالها، بكونها بيت الإله، ومن ارتكب ما لا يليقُ فثمة عقوباتٍ تُطبق عليه فورًا. ومن ذلك تحريم أخذ شيء من أموال المعبد كالطيب أو البخور أو مال الوقف المخصص له، وقد وردت لفظة السرقة في النصوص التشريعية بلفظ "يغل" وهي لفظة قرآنية وردت في ذات المعنى.[1]

وهذه هي النصوص التي تقرر عقوبة المخالفات من أي شخص، كان بنصها التاريخي:

من زار معبدا حاملا سلاحا يدفع غرامة مالية يدفع خمس قطع نقدية من نوع «حي أليم».[2]

1 وردت في سورة آل عمران في قوله تعالى: (وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ). 161.

2 وحدة نقدية متعامل بها آنذاك. ويُلاحظ أن نجاسة الدم لا تقتصر على المرأة في دم حيضها أو نفاسها فحسب؛ بل أي دم يسيل، كما هو الشأن في تعاليم الدين الإسلامي.

من زار معبدا حاملا سلاحا ملطخا بالدماء يدفع غرامة مالية قدرها عشر قطع نقدية من نوع «حي أليم».

من زار معبدا وملابسه ملطخة بالدماء يدفع غرامة مالية قدرها عشر قطع من نوع «حي أليم».

من ارتكب جهالة في وسط المعبد يُطرح أرضا ويجلد، ويدفع غرامة قدرها عشرون قطعة نقدية بلطية.

أمر ديني صادر من الإله بتقديم نذر عند زيارة المعبد، وإلا فإن الكاهن سوف يؤخر حضوره.

تحريم ممارسة العلاقات الجنسية في الأماكن المقدسة.

منع دخول من كان نجسا من دخول المعبد.

منع الحيوانات والجِمال من تجاوز أو عبور مخازن المعبد.

لا يحق شرعا دخول إناث الماشية والضأن إلى حصن «ذي مخرم» إلا في يوم الضأن الذي يأتي مرة كل عام.[1]

كما يُحرم على زائري المعبد الشغب وإثارة الفوضى في بيوت الآلهة؛ فالنقش CIH548 يتحدث عن عقوبة من يثير الشغب في «الحَرَم»، ومن يعمل ذلك يقدم ثورًا قربانا وينفق المأكولات. وهذا يذكرنا بلزوم إطعام الفقراء والمساكين والأيتام في الإسلام عقب إهمال فرض من فروض العبادة.[2] وبالفدية التي تلزم

1 يوم الضأن هنا يوم النحر المعروف في شعائر الحج الإسلامي.

2 دراسات في التاريخ الحضاري لليمن القديم، 170.

الحاج عند ارتكابه ما يخلُّ بشعيرة ما من شعائر الحج، أو مخالفته فريضة من فرائضها.

الصلاة

ذكر موسكاتي[1] أن لعرب الجنوب صلواتهم الدينية التي لم يحدد هيأتها، وإنما أشار إلى أنّ هناك صلاة لا ترتبط بوظائف دينية أو أوقات محددة كانت منتشرة انتشارًا واسعًا. وكان الغرضُ منها قبل كل شيء استجداء حماية الآلهة حتى يتحققَ الخصبُ للأرض والرواج للتجارة والخلاص من الفقر والمرض. وكان انتهاك مبدأ الطهارة يستدعي الاعتراف علنا به، وكانت الطهارة ركنًا مهما من أركان الطقوس.[2]

وقد أشارت نصوصُ المسند إلى نوعٍ معينٍ من الصّلاة لدى اليمنيين القدماء، وهي صلاةُ الاستسقاء التي مارسها عربُ الجنوب قديمًا، للتقرب من الآلهة، من أجلِ نزول الأمطار عندما تُصاب المنطقة بجفاف يهدد حياة السكان، فيقدمون الهدايا للإله، ويخرجون بالأضاحي إلى العراء لذبحها. ويرددُ السكان الأدعية والأناشيد الجماعية. وهناك نقش، عبارة عن دعاء عُثر عليه بوادي قانية «محافظة البيضاء» وهو موطن قبيلة آل معاهر «أقيال ردمان خولان» في ذلك الموقع شوهدت صخرتان، نُقش عليهما كتابات بخط المسند وأيضا مخربشات

1 أستاذ جامعى وعالم آثار وباحث إنثروبولوجيا ولغوى إيطالي، ولد في 24 نوفمبر سنة 1922 في روما. توفي في 8 سبتمبر 1997م.

2 الحضارات السامية القديمة، موسكاتي، 196.

ورسوم حيوانية وآدمية كصور الوعل، وصور شخص يحمل رمحا، واللافتُ للنظر أنه في خاتمة كل سطر يوجد حرفان مكرران «الحاء والكاف»، وبعد فك رموزها وجد أنها قصيدة مكونة من 27 سطرا، والقصيدة في مضمونها عبارة عن نشيد يتقرب فيه المواطنون إلى آلهة الشمس، آلهة المطر لديهم، كما يحتوي النص على الابتهال والاستسقاء، وكأنه أنشودة للمطر.[1]

ويحدثنا نقش: «Ja 375» عن قيام قبيلة «سبأ» و «بنات مارب» للمسير إلى معبد الإله «المقه/ أوام» في موكب ديني؛ حيث أطالوا دعواتهم وتضرعاتهم، وأكثروا من تقديم القرابين، ومن الطواف إلى أن تمت الاستجابة لدعواتهم في اليوم نفسه، فهطلت الأمطار بغزارة، وملأت مياهها حقول الزرع، وروت كل الوديان والحقول.[2]

والاستسقاء بالمرأة هنا دليلٌ على مكانتها الاجتماعية عند هذا الشعب، إذ يُستسقى بها، وربما كان الأمر كما أشار بعضهم إشارة إلى الخصوبة.[3]

وقد أقرّ الإسلامُ هذه الصّلاة، وتوارثها اليمنيون إلى اليوم، كما توارثها كلُّ المسلمين؛ حيث يؤدون صلاة الاستسقاء مصحوبة ببعض الأدعية والتوسل لله عزوجل بالسُّقيا والغيث.

---

1 أثر الحضارة اليمنية في تطور القيم الجمالية في المعابد اليمنية القديمة، 64. وانظر أيضا: دراسات في التاريخ الحضاري لليمن القديم، 175.

2 دراسات في التاريخ الحضاري لليمن القديم، 175.

3 يقول الفقهاء: استحب أهلُ العلم من أهل المذاهب الأربعة خروج الشيوخ والضعفة والصبيان والعجزة في صلاة الاستسقاء.

الحج

الحج إحدى الشعائر الدينية المقدسة لدى اليمنيين القدامى التي تتم في وقتٍ محدد من السَّنة وأماكن محددة أيضا، لا يجوز مخالفتهما، كما لا يجوزُ مخالفة أي شعيرة من شعائر الحج، ومن خالف فإنه يُعاقب بعقاب، وفقًا لما ارتكب من المخالفة أو الجرم. وجاء ذكرُ الحج في نصوصِ المسند، بصيغة: «ح ج ت».[1]

وهناك شهرٌ من شهور التقويم السبئي اسمه «ذو حجتن» هو الشهرُ الذي يتم فيه الحج على الأرجح للمعبود «إل مقه» بمارب في معبد أوام بالنسبة للسبئيين، وعند القتبانيين فإله الحج «آنباي»[2]، وأشار الهمداني إلى الحج الذي يقام سنويا للإله «تالب ريام» في رأس جبل «أتوه» من همدان. وذكر نصٌ مسندي «إرياني» الحج في حضرموت نهاية القرن الثالث، أو بداية القرن الرابع الميلادي في عهد الملك الحميري شمر يهرعش، ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمنت؛ حيث يشير النقش إلى الحج الذي كان يُقام للإله سين في شبوة. وهو يشير إلى أن الملك شمر يهرعش، ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنت قد أوفد «مقتويا»[3] للذهاب إلى مدينة شبوة، وتقديم القرابين إلى الإله

---

1 انظر المعجم السبئي، بيستون، أ. ف، وآخرون، منشورات جامعة صنعاء، ودار نشر بيترز، لبنان، بيروت، 1982م، 66.

2 لفظة «آنباي» تستخدم اليوم في تهامة في إطار الرد على خبر مدهش أو مستغرب، وهي بمثابة: يا إلهي.! التي يرددها الغربيون في ذات الدلالة.

3 مقتوي صفة لشخص يحمل رتبة عسكرية عالية.

«سين» في موسم الحج الذي كان يُقام في معبده «أليم». ومع نهاية القرن الرابع الميلادي والتي هي فترة دخول الديانة التوحيدية كانت النقوش التي عثر عليها في مدينة شبوة تشير إلى إقامة الحج على شرف الإله الرحمن، ويوضح ذلك انتهاء عبادة الإله «سين» في مدينة شبوة مع نهاية القرن الرابع الميلادي.[1]

وإلى هذه الآلهة جميعًا تُقدم القرابينُ في أيامٍ محدودة من السّنة، وفقا للأوامر المقدسة، وفيها يتم الذبح وتقديم الولائم[2]، وكان يقدمها ضيوف الحج «ضيوف رحمان» ونفقاتها من «العُشْر» الذي يقدمونه من التجارة، وخاصة من تجارة البخور التي كانت قافلتها تمر قريبًا من المعبد، ولا تعبر إلا بعد أن تدفع العُشر له. كما يقيم الملوك المكاربة أيضا الولائمَ على نفقاتهم، وتحت إشرافهم، ويتوارثونها جيلا بعد جيل، وتُعدّ الولائم أو المآدب الدينية التي يتم إقامتها من أهم شعائر طقس الحج في ديانة اليمن القديم[3]؛ حيث يجعلونها إلى جانب كونها شعيرة دينية، أيضًا تظاهرةً سياسيّة ملوكيّة، تشير إلى اتحاد جميع القبائل تحت الملك الواحد.

وقد أعدّ كهنة المعبد ورجال الدين قائمة بالتعاليم الدينية المقدسة التي يجب على الجميع الالتزام بها في أثناء الحج،

---

1 انظر: الإله سين في ديانة حضرموت القديمة، دراسة من خلال النقوش والآثار، جمال محمد ناصر عوض الحسني، رسالة ماجستير، جامعة عدن، 2006م، 136.

2 اشتق المعبد اسمه «أليم/ ألم» من الوليمة التي اشتهر بها.

3 انظر: الإله عم وآلهة قتبان 700ق. م، 170م، جمال محمد ناصر عوض الحسني، أطروحة دكتوراه، جامعة طنطا، 2012م، 325.

وعدم مخالفة أي منها، ومن خالف أي شعيرة تلزمه الكفارة. وهذه التعاليم:

1. وجوب الطهارة البدنية وطهارة الملبس عند دخول المعبد.
2. تحريم المعاشرة الجنسية غير المشروعة.
3. تحريم الجماع في زمن الحيض والنفاس.
4. وجوب الاغتسال بعد الحدث الأكبر.
5. نجاسة الثياب التي دُنست بالمني.
6. تحريم الجماع في أيام الحج.[1]
7. وجوب الطهارة عند ملامسة المياه المقدسة المخصصة للمعبودات.
8. وجوب الطهارة عند ملامسة المياه المقدسة المخصصة للمعبودات.
9. وجوب الطهارة عند تجاوز أو عبور حرم المعبود.
10. وجوب طهارة الملبس.
11. لا يجوز مخالفة أوامر المعبود.
12. لا يجوز أكل ما يصدر رائحة كريهة، كالبصل والثوم عند دخول المعبد.[2]
13. لا يجوز النزاع داخل المعبد، لأنه يتسبب في غضب المعبود.

---

1 في القرآن الكريم (فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ) البقرة: 197. والرفث: الجِماع. وفي هذا يقول الفقهاء: "مَن جامَعَ بعد الوقوفِ بعَرَفةَ وقبل التحلُّلِ الأوَّلِ فَسَدَ حَجُّه".

2 ورد في الحديث النبوي الشريف: "من أكل ثوما أو بصلا فلا يقربن مسجدنا".

14. لا يحق للكاهن رفض طلب إنسان للوساطة بينه وبين المعبود.[1]

15. يُحظر صيد الوعول الحوامل والمرضعات.[2]

16. يُحظر سوق الناقة بطريقة تسبب لها الأذى في فترة الإحرام.[3]

إلى جانب هذه التعاليم والشعائر، أيضا ثمة شعائر أخرى عدة، كالتوبة والاعتراف بالذنب، وكالنذور التي تشير إليها كثير من النصوص المسندية. وجميعُها مارسَها اليمنيون القدماء منذ آلاف السنين، وتوارثها الأبناءُ والأحفادُ خلفًا عن سلف.[4]

---

1 انظر: التشريعات في جنوب غرب الجزيرة العربية حتى نهاية دولة حمير، د. نورة بنت عبدالله بن علي النعيم، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 2000م، 178 فما بعدها.

2 دراسات في التاريخ الحضاري لليمن القديم، سابق، 173.

3 نفسه، 173.

4 كانت مدينة براقش في الجوف من المدن التي يحج لها اليمنيون، إلى جانب بعض المدن الأخرى، وفيها يمارس الحجاج شعائر متعددة كتقديم الأضاحي والولائم والطواف والاعتراف بالذنب، والإكثار من الصلوات، كما ذكرت الباحثة في تاريخ اليمن القديم، د. أسمهان الجرو.

3

اليمن دولة بَحريَّة

"ثمة مكانٌ جيد لفهم الحاضر، ولطرح الأسئلة حول المستقبل، وهو أديمُ الأرض، مع السّفر فوقها بأبطأ ما يمكن".

روبرت كابلان

تُعرّف الدولة البحرية أنها التي تُشرفُ على المسطحات المائية المفتوحة، دون عوائق أو تحكم من قبل أي دولة أخرى، وقد تطلُّ على هذه المسطحات من جهة واحدة، كالسودان والعراق والكويت، أو من جهتين، كمصر واليمن والمملكة العربية السعودية، أو من ثلاث جهات كفرنسا[1] وتركيا[2]، وقد تطلُّ المسطحات المائية ذاتها على بعض الدول مثل دولة البحرين، وإلى حد كبير قطر، وقد تكون الدولة جزرية، كاليابان وبريطانيا.

وبطيعة الحال، فإنّ للدول البحرية سياساتِها الاستراتيجية المتوائمة مع مكانتها الجيوسياسية، كما هو الشأنُ مع الدول البريّة التي تنتهج سياسة مغايرة لاستراتيجية الدول البحرية.

وتعدُّ الولاياتُ المتحدة الأمريكية دولة بحرية؛ كونها محاطة بالمسطحاتِ المائية؛ إذ تنحصرُ بين المحيط الهادئ من الجهة الغربيّة، والمحيط الأطلسي من الجهة الشّرقية؛ خلافًا لروسيا

---

1 تطل على البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي وبحر المانش.

2 تطل تركيا على كل من: البحر الأسود والبحر الأبيض المتوسط، وبحر إيجة، وتعد من أطول الدول اتصالا بالبحار بما يزيد عن 7816 كيلو متر.

التي وإن كانت تتصلُ بالبحار كثيرًا، فهي بحكم اتساعها دولة برية، وتتصل بأربعة عشر دولة على حدودها البرية.[1]

وعكس الدول البحرية الدول «الحبيسة»، أو الدول «المغلقة»، وهي لا تتصلُ بأية مسطحات مائية على حددوها السياسية إلا عبر دول أخرى مجاورة لها، وتبلغ عدد الدول الحبيسة في العالم 44 دولة؛ حيث يوجد 16 دولة منها في أفريقيا،[2] و14 دولة في أوروبا،[3] و12 دولة في آسيا.[4] ووحدهما أمريكا الشمالية وأستراليا القارتان الوحيدتان اللتان لا تمتلكان دولا حبيسة.[5]

وتعاني الدولُ الحبيسة من مشاكل عدة، أهمها المشاكل الاقتصادية؛ إذ تعدّ الدولُ الحبيسة الأفريقية من أكثر دول العالم فقرا، ووفقا للبيانات الإحصائية، شهدت النيجر أعلى نسبة أمية في العالم للشباب في الفئة العمرية 15-24 سنة التي بلغت حوالي 81% في عام 2021م.

---

1 هذه الدول هي: النرويج وفنلندا وإستونيا ولاتفيا وليتوانيا وبولندا وروسيا البيضاء وأوكرانيا وجورجيا وأذربيجان وكازاخستان ومنغوليا والصين وكوريا الشمالية.

2 الدول الحبيسة في أفريقيا: بوتسوانا، بوركينا فاسو، جمهورية أفريقيا الوسطى، تشاد، أثيوبيا، ليسوتو، ملاوي، مالي، النيجر، رواندا، جنوب السودان، سوازيلند، أوغندا، زامبيا، زمبابوي، بورندي.

3 الدول الحبيسة في أوروبا: أندورا، النمسا، بيلاروسيا، الجمهورية التشيكية، هنغاريا، ليختنشتاين، لكسمبرغ، مقدونيا، مولدوفا، سان مارينو، صربيا، سلوفاكيا، سويسرا، مدينة الفاتيكان.

4 الدول الحبيسة في آسيا: أفغانستان، أرمينيا، أذربيجان، بوتان، لاوس، كازاخستان، قيرغيزستان، منغوليا، نيبال، طاجيكستان، تركمانستان، أوزبكستان.

5 تعد دولة كازاخستان أكبر دولة حبيسة في العالم، أكبر دولة حبيسة إذ تبلغ مساحتها 2.67 مليون كيلومتر مربع، ويحيط بها كلٌ من روسيا، والصين، وجمهورية قيرغيزستان، وأوزبكستان، وتركمانستان، وهي من الدول الأوراسية، وغالب أجزائها في المنطقة الأوروبية.

وقد أقرت التشريعاتُ الدوليّة حقوقا للدول الحبيسة، كحق الوصول إلى السواحل عن طريق اتّفاقيّات إقليميّة أو شبه إقليميّة بين الدّولة الحبيسة والدّول المجاورة لها، والّتي تمتلك سواحل بحريّة. وللدّول العابرة المجاورة للدول الحبيسة الحق في اتخاذ كل التدابير لضمان الحقوق المنصوص عليها وتسهيلها. وأيضا حق المرور البحري، بما لا يضر بالدول المجاورة.

كما أقرت المادة 87 من اتفاقية الأمم المتحدة لقانون البحار أن «أعالي البحار» مفتوحة لجميع الدول الحبيسة وغير الحبيسة؛ إذ لها حق الملاحة البحرية، وحق التحليق الجوي عليها، وحق وضع الكابلات وخطوط الأنابيب وإقامة الجزر الصناعية، وصيد الأسماك، والبحث العلمي، وتسيير سفنها الخاصة بها، مرفوع عليها علمُها الخاص بها.

هذه أشكالُ علاقاتِ الدول بالبحار، ونتوقفُ عند اليمن في هذه التناولة، متسائلين أولا: اليمنُ أهي دولة برية؟ أم بحرية؟!

والحقيقة أن اليمن دولة بحرية، ولكن للأسف بإدارة جبليّة حينا، وبتفكير صحراوي حينا آخر!

تحيط المسطحات المائية باليمن من الغرب كاملا، ومن الجنوب، والجنوب الشرقي، بطول ساحلي يقارب 2500كم، في شريط ممتد من الحدود العُمانية باتجاه الجنوب الغربي إلى باب المندب، ثم يبدأ بالتعرج في زاوية قائمة شمالا، بما يزيد عن 440 كم، حتى الحدود البحرية مع المملكة العربية السعودية.

البحر الأحمر

ترجع نشأة البحر الأحمر إلى ما يزيد عن 40 مليون سنة، وهو جزء من الأخدود الأفريقي الذي تكون في الحقبة الأيوسينية[1] في الزمن الجيولوجي الثالث؛ إذ اتصفت تلك المدة بكثرة الانفجارات البركانية واتساع الحركات الالتوائية، ونشوء ظاهرة الانكسارات في القشرة الأرضية، وأدت إلى بروز سلاسل جبلية وهضاب مرتفعة ووديان ومنخفضات شديدة، كان بينها منخفض البحر الأحمر الذي برزت إلى جانبه سلاسل جبلية التوائية.[2]

وهو يقع بين قارتي آسيا وأفريقيا، يبتدئ جنوبا من باب المندب، المتاخمة للبحر العربي، وينتهي على تخوم البحر الأبيض المتوسط، بواسطة قناة السويس. وتزداد نسبة ملوحته في الجنوب أكثر من الشمال. ويبلغ أقصى عرض له 204 كم، قريبا من مدينة "مصوع" الارتيرية؛ أما أقل عرض له فيقع عند باب المندب بعرض 19 كم. أعمق نقطة مائية له 2635 مترا تحت سطح البحر، ومتوسط عمقه 491 مترا.

---

1 الحقبة الأيوسينية فترة تمتد من 56 إلى 34 مليون سنة مضت، وهي الفترة الثانية من عصر الباليوجين للزمن الجيولوجي.

2 جغرافية البحار والمحيطات، مهدي محمد علي، دار الكتب للطباعة، جامعة الموصل، ط:1، 1982م، 261.

الدول المطلة على البحر الأحمر

تطل اليمن على مساحة ساحلية طولها 2500كم، والمملكة العربية السعودية بساحل طوله 1890كم، والأردن 27كم، وفلسطين 2 كيلو و11 مترا، ومن الجهة الغربية تطل عليه مصر بساحل طوله: 1425كم، والسودان بساحل 717كم، وإرتيريا بساحل ألفا و 12 كم، وجيبوتي بساحل 40 كم.[1]

جدول يوضح توزيع سواحل البحر الأحمر بالميل البحري والنسبة المئوية

الدولة	طول الساحل بالميل	طول الساحل بالكيلو متر	النسبة المئوية
المملكة العربية السعودية	1125	1811	%36
جمهورية مصر العربية	898	1445	%28,8
دولة إرتيريا	425	683	%15,6
جمهورية السودان	309	498	%9,8
الجمهورية اليمنية	275	442	%8,8
دولة جيبوتي	25	40	%0,7
فلسطين/ إسرائيل	7	11	%0,2
الأردن	5	8	%0,1
المجموع	3069م/ بح.	4938كم	%100

1 انظر: الصراع الدولي في البحر الأحمر بين الماضي والحاضر، أ. د. كريم مطر حمزة الزبيدي، الشركة العربية المتحدة للتسويق والتوريدات، مصر الجديدة، ط:1، 2017م. 20.

خصائص وميزات البحر الأحمر

للبحر الأحمر ميزات جيوسياسية واقتصادية لا توجد في غيره من بحار العالم، ومن هذه الميزات:

1. يربط بين قارتين، آسيا وأفريقيا، ويتصل بقارة أوروبا من خلال البحر الأبيض المتوسط، كما يتصل بالبحر العربي والمحيط الهندي.
2. يشكل حلقة الاتصال بين البحار الشرقية والبحار الغربية، ويعد الشريان الحيوي المهم للمواصلات بين أوروبا وبلاد الشرق بوجه عام، وقد ظل هذا البحر على مدى العصور التاريخية المتعاقبة عاملا فعالا لربط البلاد المحيطة به، بعضها ببعض، فهو يشكل طريقا للملاحة البحرية بينها، ووسيلة تسهل التبادل التجاري والحضاري بين شعوبها، فكان بذلك سببا في ازدهارها، كما أنه ظلّ مطمعًا ومطمحا للقوى الكبرى التي تتطلع دائما للسيطرة عليه، لتتحكم في تجارة الشرق، وليكون لها السيادة على غيرها.[1]
3. البحر الأحمر من أكثر بحار العالم نقاوة، وأقلها تلوثًا، ذلك أن كلَّ الدول المطلة عليه ليست دولا صناعية كبرى، تتسبب نفايات الصناعات السامة وأدخنة المصانع في تلويث مياهه؛ كما هو الشأن مع بقية بحار العالم، وخاصة البحر الأبيض المتوسط الذي تلوثت بيئته البحرية كثيرا،

---

1 عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر 1839 1918م، د. فاروق عثمان أباظة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1987م، ص: 18.

بحكم ارتباطه بأكثر من دولة صناعية أثّرت سلبًا على بيئته البحرية.

4. يتميز بالمضائق الدولية في طرفيه، بما يؤهل الدول المطلة عليه للعب دور عالمي إذا ما توحدت فيما بينها.

5. ترتبط بالبحر الأحمر عدة حضارات تاريخية قديمة، كحضارة جنوب الجزيرة العربية في اليمن، وحضارة الفراعنة في مصر، وحضارة الحبشة في أثيوبيا وإرتيريا والقرن الأفريقي، والحضارة الكنعانية والفينيقية في الشام. وأيضا مع الحضارة الهندية عن طريق المحيط الهندي المرتبط بالبحر الأحمر.

6. يتمتع بثروات طبعية مهولة كالنحاس والرصاص والذهب والفضة والغاز الطبعي والنفط، والأحياء البحرية والثروة السمكية،[1] وإن كانت مجمل هذه الثروات غير مستغلة من قبل الدول المطلة على البحر الأحمر، إلا في الحد الأدنى فقط.

7. تكمن الأهمية الجيوبوليتيكية للبحر الأحمر في كونه أقصر الطرق التي تصل الدول الصناعية بالدول النامية، المصدرة للمواد الخام، والمواد الأولية، وكذلك هو الشريان الرئيس لانسياب النفط من دول الخليج إلى أوروبا، فضلا عن أنه أقصر الطرق لمرور منتجات الدول الصناعية إلى أسواقها في

---

1 السياسة الخارجية السعودية تجاه دول منطقة البحر الأحمر، 1964 1974م، سلام داود غزيل، رسالة ماجستير غير منشورة. في كتاب: الصراع الدولي في البحر الأحمر بين الماضي والحاضر، الأستاذ الدكتور كريم مطر حمزة الزبيدي، سابق. 27.

آسيا وأفريقيا، فلا غرابة أن تسعى الدول الكبرى إلى تدعيم وجودها في البحر الأحمر وتقويته؛ مما قاد إلى صراع فيما بينها، بدءًا من البرتغال، مرورا بالهولنديين وبريطانيا وفرنسا وإيطاليا والولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي، وكان لذلك التنافس والصراع أثره الكبير على الدول المطلة على البحر الأحمر سياسيا واقتصاديا.[1]

البحر الأحمر استراتيجيا

يتمتع البحر الأحمر بأهمية استراتيجية بالنسبة للجمهورية اليمنية، وذلك للأسباب التالية:

1. وجود عدد من الموانئ التجارية في كل من الحديدة والصليف والخوخة والمخا.
2. تصدير النفط اليمني من الساحل الغربي للجمهورية اليمنية وما يدره على البلاد من عملات صعبة، تلعب دورا كبيرا في الاقتصاد اليمني، ومن ثَمّ تسهم في تأمين الأمن القومي الاقتصادي بدرجة كبيرة.
3. وجود المحطات الكهرومائية على الساحل الغربي ودورها الكبير في تأمين الطاقة الكهربائية للبلاد، ومن ثَمّ الإسهام في الأمن الصناعي للوطن.

---

1 الصراع الدولي في البحر الأحمر بين الماضي والحاضر، سابق، 27. وانظر أيضا: الصراع الدولي في منطقة البحر الأحمر وتأثيره على الأمن القومي للجمهورية اليمنية. "رسالة ماجستير" ثابت الأحمدي، مؤسسة أروقة للدراسات والترجمة والنشر، القاهرة، ط:1، 2020م ص: 33 فما بعدها.

4. وجود ثروات سمكية كبيرة في المياه الإقليمية اليمنية التي لو تمت حمايتها وتنميتها وتصديرها لأسهمت بدور كبير في الأمن الغذائي للمواطنين، بدلا عن اللحوم المستوردة من الخارج.
5. وجود الشعب المرجانية في مختلف شواطئ البلاد، وحول الجزر اليمنية، وما تزخر به من الأسماك والحيوانات البحرية النادرة بما يزيد الساحة ازدهارا، ما يؤدي إلى توفير العملات الصعبة المطلوبة للتنمية الشاملة في البلاد، وتحقيق الأمن الوطني للجمهورية اليمنية.
6. وجود ثروات معدنية ومواد خام في البحر أساسا وخاصة خام البترول الذي يعد ثروة اقتصادية مهمة في العصر الراهن.
7. تزداد أهمية الجزر من الناحية العسكرية لتأمين الدفاع عن السواحل اليمنية والثروات البحرية الكبيرة النادرة، وهو ما يؤدي إلى صيانة الأمن الوطني اليمني في البحر الأحمر.[1]

مضيق باب المندب

باب المندب هو نقطة الاختناق الرئيسة، ومفتاح المدخل الجنوبي للبحر الأحمر، ويبلغ عرضه حوالي عشرين ميلا،[2]

---

1 الجزر اليمنية، د. شهاب محسن عباس، مركز عبادي للدراسات والنشر، صنعاء، ط:1، 1996م، 31. وانظر أيضا: الصراع الدولي في منطقة البحر الأحمر وتأثيره على الأمن القومي للجمهورية اليمنية، 47.

2 الميل البحري الواحد يساوي 1852 مترا. أي 6076 قدما.

وتقسمه جزيرة بريم/ ميون إلى ممرين، فالقناة الشرقية يقل عرضها عن ميلين، ويبلغ عمقها 85 قدما[1]، في حين يبلغ عرض القناة الغربية 16 ميلا، ويصل عمقها إلى 990 قدما، وهي تمثل القناة الوحيدة الصالحة للملاحة.[2]

وتعد جزيرة بريم من أهم جزر البحر الأحمر، تتمتع بأهمية استراتيجية وجيوبوليتيكية، نظرا لموقعها، فهي تقع عند مدخل مضيق باب المندب، وموقعها الاستراتيجي يتيح لها قدرة التحكم في المدخل الجنوبي للبحر الأحمر، وتبعدُ الجزيرة عن عدن بنحو 96 ميلا بحريا، وتبعد عن الساحل اليمني بنحو ميل ونصف، وعن الساحل الأفريقي نحو 11 ميلا، تعلو عن سطح البحر بنحو 214 قدما، يبلغ طولها أكثر من ثلاثة أميال، وعرضها حوالي ميلين، وهي تشبه الهلال، وتتكون من صخور بركانية، وهي مستوية السطح، أعلى نقطة فيها لا يزيد ارتفاعها على 9,68مترا، تشطر مضيق باب المندب إلى قناتين، شرقية تسمى باب إسكندر، وغربية تسمى ميمون.[3]

---

1 القدم يساوي 30سم و48 مل.

2 البحر الأحمر والصراع العربي الإسرائيلي، التنافس بين استراتيجيتين، د. عبدالله عبد المحسن السلطان، سابق،30. الجدير بالإشارة هنا التسميتان الاثنتان للجزيرة الواحدة؛ إذ سماها الغربيون ميون، نسبة إلى نوع من أنواع الصخور فيها، ويسميها العرب: ميمون، نسبة إلى قرية عربية هناك، وهي تقسم الممر إلى قسمين: الممر الشرقي، ويسمى باب إسكندر، والآخر غربي، اسمه ميون/ ميمون.

3 التجارة في موانئ البحر الأحمر في العصر العباسي 132 656هـ، لمى فائق أحمد السامرائي، رسالة ماجستير، جامعة بغداد، كلية التربية، 2002م،25. وانظرها في الصراع الدولي في البحر الأحمر، سابق، 39.

أهمية باب المندب

ترجع أهمية هذا المضيق إلى أنه يربط البحر الأحمر بالمحيط الهندي، عبر بحر العرب والقرن الأفريقي وبحر عمان، ويربط الخليج العربي بالبحر الأحمر، ومنه إلى البحر الأبيض المتوسط، ويقع في منتصف الطريق بين السويس وبومباي.[1]

وتبلغ نسبة الحركة الملاحية العالمية في باب المندب 38% من الحركة الملاحية العالمية؛ إذ يمر فيه ما يقرب من 57 قطعة بحرية في اليوم الواحد، ولهذا سعت إسرائيل لدعم إرتيريا في الاستيلاء على جزيرة حنيش الكبرى عام 1995م، لتقترب من باب المندب، فتكون من ضمن اللاعبين الأساسيين على المستوى العالمي والمتحكمين في طرق التجارة العالمية.[2]

يعبر خلاله من 20 إلى30 ناقلة نفط يوميًا، وتمر منه كل عام خمسة وعشرون ألف سفينة، ويزيد ارتباطه بكل من قناة السويس وممر مضيق هرمز من أهميته العربية والدولية.

لقد ظلت أهمية باب المندب محدودة حتى افتتاح قناة السويس سنة 1869م، وربط البحر الأحمر وما يليه بالبحر المتوسط وعالمه؛ فتحول إلى واحد من أهم ممرات النقل والمعابر على الطريق البحرية بين بلدان أوروبية والبحر المتوسط، وعالم المحيط الهندي وشرقي أفريقيا. ومما زاد في أهمية الممر، أن

---

1 أمن الممرات المائية العربية، حمد سعيد الموعد، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1999م، 17.

2 أهمية جزر البحر الأحمر في الأمن القومي العربي، جزيرة حنيش الكبرى وتيران وصنافير، دراسة حالة. خالد حماد أحمد عياد، أطروحة دكتوراه، جامعة مؤتة، الأردن، 2017م، ص: 104.

عرض قناة عبور السفن وتقع بين جزيرة بريم والبر الأفريقي هو 16كم، وعمقها 100-200م. مما يسمح لشتى السفن وناقلات النفط بعبور الممر بيسر على محورين متعاكسين متباعدين. ولقد ازدادت أهميته بوصفه واحداً من أهم الممرات البحرية في العالم، مع ازدياد أهمية نفط الخليج العربي.[1]



---

1 ويكيبيديا الموسوعة الحرة، على الرابط:
https://ar.wikipedia.org/w/index.php?title=%D8%A8%D8%A7%D8%A8_%D8%A7%D9%84%D9%85%D9%86%D8%AF%D8%A8&action=edit&section=1

تتمتع اليمن بساحل بحري طويل يصل إلى 2500كم؛ أي أن كل كيلو متر من المساحة يقابله 182.2 كم. وتطل هذه السواحل على بحريه: الأحمر، والعربي، الأمر الذي جعل اليمن وفق تصنيفات الجيوبوليتيك دولة بحرية بالمقام الأول، لكن هذا البعد الاستراتيجي ظل بعيدا عن اهتمامات السلطات المتعاقبة منذ مطلع القرن العشرين وإلى اليوم، وإن حصلت بعض الاهتمامات الملحوظة منذ سبعينيات القرن الماضي فإنها اهتمامات متواضعة جدا وخجولة، ولا ترقى إلى مستوى الواجب الذي ينبغي أن يكون، ولو في حده الأدنى؛ فجُل حدود اليمن الغربية بحرية، بطول 442 كم على البحر الأحمر؛ إضافة إلى الحدود الجنوبية والجنوبية الشرقية، فهي أيضا بحرية بما يزيد عن ألفي كيلو متر. وهي من أطول المساحات البحرية لأي دولة على مستوى الوطن العربي كاملا.

وقد أدى هذا الامتداد البحري إلى امتلاك اليمن لمجموعة كبيرة من الجزر المنتشرة على امتداد البحرين الأحمر والعربي. ويبلغ عدد الجزر اليمنية 182 جزيرة، موزعة على ثلاثة قطاعات رئيسة: هي البحر الأحمر وخليج عدن والبحر العربي. ويصل عدد الجزر في قطاع البحر الأحمر إلى 150 جزيرة، موزعة على أربعة قطاعات رئيسة، هي: قطاع ميدي، ويضم 52 جزيرة. وقطاع اللحية، ويضم 48 جزيرة، وقطاع كمران،

ويضم 17 جزيرة، وقطاع حنيش وزقر، ويضم 33 جزيرة، وسنتناول بعد قليل الجزر اليمنية المتعلقة بالبحر العربي.[1]

البحر العربي

تتصل اليمن بالبحر العربي من الجهة الشرقية والجنوبية، في شريط حدودي يزيد عن ألفي كيلو متر، يلتقي في الجنوب مع البحر الأحمر، عبر مضيق باب المندب، متصلا بخليج عدن، وخليج عمان. وهو في نظامه الأمني والمائي يشكل منظومة واحدة مع المحيط الهندي الذي يُعد واحدا من أكبر المساحات المائية على كوكب الأرض.

وقد لعب دورا اقتصاديا وتجاريا كبيرا من قديم الزمن منذ الألفية الثالثة وحتى اليوم، سواء مع الهند أو الصين، في تجارتهما مع الجزيرة العربية ودول الشام، وعبره ارتبطت منطقة الشرق الأقصى بمنطقة الشرق الأدنى، ومؤخرا «الشرق الأوسط». وتقدرُ مساحته الإجمالية حوالي ثلاثة ملايين و 862 ألف كيلو متر مربع. ويصل أقصى عمق إلى 4652 مترا.

---

1 تقرير خاص عن الجزر اليمنية، متوفر على الإنترنت. صدر القرار الجمهوري رقم 285 لسنة 1999م تضمن إنشاء هيئة عامة تعنى بتنمية الجزر اليمنية وتطويرها اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا. وبدورها فقد قامت الهيئة بعمل المسوحات الميدانية وتنفيذ الدراسات الأولية، لتوفير المعلومات الأولية عن طبيعة هذه الجزر، وقد تمخضت هذه الدراسة عن تقسيم الجزر اليمنية إلى سبعة قطاعات، يضم كل قطاع عددا من الجزر، وهي: قطاع جزر ميدي، قطاع جزر اللحية، قطاع جزر الحديدة، قطاع جزر عدن وباب المندب، قطاع جزر بئر علي «شبوة». قطاع جزر أرخبيل سقطرى.

الدول المطلة على البحر العربي

ترتبط بالبحر العربي عدة دول، بعضها تطل عليه، فيما ترتبط به الأخرى، وهي: الهند، إيران، عُمان، باكستان، اليمن، الصومال والمالديف.[1]

الجزر اليمنية في البحر العربي

تتوزع الجزر اليمنية في البحر العربي على ثلاثة قطاعات:

1. قطاع خليج عدن، ويضم 21 جزيرة.
2. قطاع بئر علي في شبوة، ويضم أربع جزر.
3. قطاع أرخبيل سقطرى، ويضم سبع جزر.

ووفقا للإحصاءات الرسمية في تقديراتها الأولية فإن المساحة الكلية لمجموعة الجزر اليمنية تصل إلى 21 ألف كم2؛ متفاوتة في أبعادها وأطوالها. وهي غير آهلة بالسكان، سواء لصغر مساحاتها أو لانعدام خدمات البنية التحتية فيها، عدا ست جزر فقط آهلة بالسكان، هي جزيرة سقطرى وجزيرة عبد الكوري وجزيرة ميون وجزيرة كمران وجزيرة الفشت وجزيرة بكلان، وهناك بعض التجمعات السكانية بين الحين والحين في أرخبيل زقر وحنيش. ويبلغ عدد سكان الجزر اليمنية 140 ألف نسمة، يقطن نحو 85,7% منهم في أرخبيل سقطرى؛ حيث يبلغ

---

1 وتطل عليه مدن عدة مثل: مومباي في الهند، وكراتشي في باكستان، وولاية صور، وصلالة في عُمان، وبوساسو في الصومال. كما تطل عليه أيضا كل المدن اليمنية الجنوبية، باستثناء الضالع.

عدد السكان في الأرخبيل 120 ألف نسمة، فيما تبلغ نسبة سكان الجزر في قطاع البحر الأحمر 12,2%، من إجمالي سكان الجزر، وبعدد سكان يصل إلى سبعة عشر ألف نسمة، فيما يصل عدد سكان الجزر في قطاع خليج عدن إلى ثلاثة آلاف نسمة، بنسبة 2,1% من إجمالي عدد سكان الجزر اليمنية.

الأهمية الاستراتيجية لأرخبيل سقطرى

أرخبيلُ سقطرى أكبرُ أرخبيل يمني مأهول بالسكان، كما أشرنا سابقا، ويعد عينَ اليمن في المحيط الهندي، ويُشرف على حركة الملاحة البحرية بين دول الشرق الأقصى ودول الشرق الأوسط، كونها في الممر الدولي البحري الذي يربط دول المحيط الهندي بالعالم، فهو يطلُّ على طريق النفط العالمي الذي يمر قريبا منها، كما يربط بين البحرين العربي والأحمر، في نظام أمني يمني بحري واحد.

وأرخبيل سقطرى جزءٌ لا يتجزأ من السيادة اليمنية منذ التاريخ القديم وحتى اليوم، وأهله ينتسبون إلى الأرومة القحطانية، محتفظين بالكثير من العادات اليمنية الأصيلة التي تتواجد في كل من حضرموت ومهرة وعدن، مع خصوصية يسيرة للسقطريين.

وتتميزُ جزيرة سقطرى بتنوع بيئي استثنائي من بين كل جزر العالم، كما تكتنزُ بفصائل نباتية وحيوانية وفطرية بحرية نادرة، وقد عدت من أجمل جزر العالم، ولهذا فهي محلُّ أطماع القوى العالمية

المسيطرة من قديم الزمن، ولا تزال، لأهميتها الجيوسياسية والبيئية والجمالية.

الموقع البحري اليمني، هبة السماء

الحدود السياسية اليمنية تشبه الحدود السياسية للولايات المتحدة الأمريكية التي تقع بين المحيطين الأطلسي والهادي، وتحدها من اليابسة كل من كندا من الشمال والمكسيك من الجنوب.

ذات الشأن مع اليمن، تُسَيّجُ حدودها الغربية كاملة المسطحات المائية للبحر الأحمر، وأيضا من الجنوب، والجنوب الشرقي، ولا تتصل اليمن بحدود برية "يابسة" إلا بسلطنة عُمان من الجهة الشرقية ب 288 كيلو متر، والمملكة العربية السعودية من الشمال ب 1458 كيلو متر فقط. واليمن من أقل الدول اتصالا جغرافيًا بغيرها من الدول، على العكس مما عليه الأمر مع السودان مثلا التي تحدها مصر من الشمال، وليبيا من الشمال الغربي، وتشاد من الغرب، وجمهورية أفريقيا الوسطى من الجنوب الغربي، وجنوب السودان من الجنوب، وإثيوبيا من الجنوب الشرقي، وإريتريا من الشرق، والبحر الأحمر من الشمال الشرقي. ومثل هذه الحدود البرية لها تكاليفها الباهظة، كما لها مخاطرها السياسية والبيئية أيضا، خلافا لما هو عليه الأمر بالنسبة للحدود البحرية التي تُعتبر أقل كلفة؛ بل إنها في الواقع ميزة اقتصادية وسياسية كبيرة.

تتحكم اليمن بنظامين أمنيين بحريين:

البحر الأحمر، ومن ضمن دوله الثماني إسرائيل التي تنتمي إلى النظام الأمني المائي في البحر الأحمر، ومن خلال «مضيقه» تستطيع التحكم بحركة الملاحة الدولية.

البحر العربي، ومن ضمن دوله إيران التي تنتمي إلى النظام الأمني المائي في البحر العربي، مع الصومال، وعمان، وإيران، وباكستان، والهند، وجزر المالديف. ومن خلاله «خليج عدن» تستطيع اليمن التحكم بحركة الملاحة الدولية. مع الإشارة هنا إلى الأطماع الإيرانية في البحر الأحمر، والأطماع الإسرائيلية في البحر العربي.

أخطار محتملة

على حدودنا المائية دولتان عدوّتان: إسرائيل وإيران. وفي حال أي خلاف يمني مع سلطنة عمان، فإن اليمن عرضة للمخاطر الأمنية من الجنوب، والجنوب الشرقي «خليج عدن، وخليج عمان»؛ كون إيران وعمان تنتميان إلى نظام أمني واحد، من خلال الاتفاقيات البحرية بينهما.

من ناحية ثانية إن أي خلاف إرتيري يمني يجعل اليمن عرضة لمخاطر بحرية إسرائيلية من «الغرب» من خلال البحر الأحمر؛ كون إسرائيل حاضرة في بعض الجزر الإرتيرية، ونظرا لخصوصية العلاقة الإرتيرية الإسرائيلية، وقد يكون الخطر الإرتيري وحده كافيًا لتهديد الملاحة اليمنية، والبيئة البحرية اليمنية بشكل عام. مع الإشارة إلى الحضور الإيراني أيضا في إرتيريا من خلال بعض الجزر التي تستأجرها من إرتيريا هناك. ليس ذلك فحسب؛ بل إن بين إيران وإسرائيل تعاونا أمنيا بحريا، وكلاهما يراقبان حركة الملاحة البحرية من خلال أجهزة رصد متطورة، تصل في مداها إلى المياه الإقليمية اليمنية.

إن تسلل إيران باتجاه منطقة الشرق الأوسط ودول الإقليم، دون غيرها، سواء برا أم بحرا، قد جاء بعد أن يئست من التسلل شرقا باتجاه باكستان، أو شمالا باتجاه روسيا، كون باكستان وروسيا قوتين نوويتين، ومن المستحيل كسر شوكتيهما، فيئست منهما، كما أنها لا تطمع في الهند أيضا ذات القوة البشرية والسياسية الصاعدة، والمفصولة عنها بالبحار،

فتسللت باتجاه «الجنوب» الخليج العربي واليمن، مراهنة على بعض الحضور التاريخي في المنطقة سابقا، وعلى بعض الجيوب «الشيعية» المزروعة مؤخرا.

هذه أخطار محتملة، خاصة الخطر الإريتري، ويستدعي الأمر تعميق العلاقة البحرية وتطويرها أكثر مع كل من جيبوتي، والمملكة العربية السعودية ومصر.

على صعيد متصل يفترض المحلل السياسي الأستاذ عبده سالم وجود خطر محتمل في المنظومة الأمنية الإقليمية لدول بحر العرب من خلال "ما يُسمى بمنطقة البنادر وهي المنطقة التي تبدأ من بندر عباس في مضيق هرمز، وصولا إلى بنادر زنجبار في أفريقيا. وكلمة البنادر تعني مناطق التقاء المسافرين عبر البحر، التي ينزلون عندها للاستراحة، وعادة ما تكون مناطق تقاطع حركة السفن والملاحة؛ أي أنها بالمصطلح التقليدي «مقاهٍ بحرية»، تلتقي فيها حركة السفن من كل الاتجاهات، وفيها ينزل التجار لإبرام العقود مع الشركات العابرة التي عادة ما يكون لها مكاتب في هذه البنادر، في إطار اتفاقيات التجارة الحرة. ما نقصده من هذا التوصيف لهذه المنطقة هو الإشارة إلى نقطة مهمة وهي: أن مجتمعات هذه البنادر هي نتاج لاستقرار بعض الأقوام في قديم الزمان من مختلف العالم؛ حيث تناسل الفارسي من العربي، والعربي من الهندي، والهندي من الأوروبي، وبالتالي تَشكلَ سكانُ هذه

البنادر من هذا الهجين البشري، وعادة ما يكون هذا الهجين المتداخل مهوى التدخلات الخارجية".[1]



1 موقع المصدر أونلاين، على الرابط:

https://almasdaronline.com/article/95111

بالنظر إلى الحضور الإيراني في العراق، تنظر إيران إلى العراق كعمق استراتيجي لها، ساعية إلى إلحاق العراق بها؛ بل لقد ألحقت قسرا منطقة الأحواز العربية بها.

إقليم الأحواز إقليم عربي يقع على السواحل الشرقية للخليج العربي، ابتداءً من مضيق هرمز إلى شط العرب، مساحته: 159,600كم^2. ويتوزع بين ثلاث محافظات: محافظة خوزستان، ومحافظة هرمزكان، ومحافظة بوشهر. يسميه الفرس عربستان «أرض العرب». وأيضا خوزستان، وتعني بالفارسية: أرض الخير؛ لأن أراضيه زراعية خصبة، تغذيها الأنهار المتدفقة من المرتفعات الجبلية التي تجري على مدار العام. ومناخه امتداد لمناخ محافظتي البصرة والعمارة العراقيتين، والقريبتين منه. بل إن إقليم الأحواز حين تم فتحه بداية الفتوحات الإسلامية في عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، ألحقه عمر بالبصرة فورا. وربطه بها، وكان من يتولى ولاية البصرة يحكم أيضا الأحواز، باعتباره جزءا من ولاية البصرة، وكانت الجزية تؤخذ ممن لم يسلموا، وهم قلة من الفرس، وبقيت كذلك حتى نهاية العصر الأموي، علما أن القائد العسكري الذي فتحت على يديه الأحواز هو الزعيم اليماني أبو موسى الأشعري رضي الله عنه، ومعه أيضا القادة العسكريون اليمانيون: الربيع بن زياد الحارثي وجرير بن عبد الله البجلي، وكلاهما من أبطال القادسية.

وينتمي الأحوازيون إلى أصل عربي خالص، تكوّنوا من عدة قبائل عربية من قديم الزمن، هم «بنو كعب»، و«بنو طرف»، وقبائل «آل سيد نعمة»، و«بنو تميم»، و «آل كثير» وغيرهم من القبائل، وجلهم من المسلمين السنة عدا القليل من الشيعة، ويخالط هؤلاء العرب قليلٌ من بقايا الزرادشتية واليهودية التي بدأت تغادر الإقليم في السنوات الأخيرة باتجاه طهران العاصمة، لانشغال أغلبهم بالتجارة في العاصمة والمدن الكبرى. وظل العرب محافظين على تقاليدهم العربية، ومنها التزاوج فيما بينهم في الغالب، إلا ما ندر من تزويجهم لغيرهم من الفرس في هذا الإقليم. ويزيد سكان الأحواز عن أربعة ملايين نسمة، حوالي 99% منهم عرب أو من أصل عربي، إلى العام 1925م، ولم تتزايد بعضُ الأقليات فيه إلا من بعد ذلك. وقد ذكر الرحالة الألماني/ الدانمركي كارستن نيبور في القرن الثامن عشر أن العرب كانوا يمتلكون جميع السواحل الشرقية من الخليج العربي، مشيرا إلى أنه من الصعب تحديد الوقت الذي اتخذ فيه العرب موطنهم على الساحل، والأهم من ذلك حين وصف «عربستان» آنذاك أنها بلاد مستقلة عن فارس، وأن لأهلها لسان العرب وعاداتهم، و "أنهم يتعشقون الحرية إلى درجة قصوى، شأنهم شأن إخوانهم في البادية".

في العام 2006م كانت انتفاضة الأحواز التي تبناها عرب الأحواز ضمن انتفاضات عرقية وقومية أخرى في البلاد، لكنها قُمعت بشدة، ومع ذلك لم تنته، فلا يزال البركان هادرا، وقد تستعيد استقلالها يوما ما.

كذلك تفعل تركيا مع سوريا، كبلد متصل بها بريا من خلال إقليم حلب؛ وأيضًا من خلال لواء الإسكندرونة الذي دخلته القوات التركية عام 1939م واحتلته قسرا، معلنة ضمه رسميا إلى تركيا، وسمته محافظة «هاتاي»، وهو يتصل من الشمال الغربي بكل من: حلب واللاذقية وإدلب. وكلها مدن سورية معروفة إلى اليوم. دخل في معاهدة سايكس بيكو ضمن «المنطقة الزرقاء» «البلاد الساحلية الممتدة من الناقورة إلى الإسكندرونة» التابعة لفرنسا التي كانت تحتل سوريا حينها، مقابل المنطقة الحمراء التي كانت من نصيب بريطانيا، وتشمل البصرة وبغداد. ويشكل لواء الإسكندرونة أهمية استراتيجية لتركيا وسوريا على حد سواء، فهو يقع على ضفاف خليج الإسكندرونة، المطل على البحر الأبيض المتوسط، متحكما بالبوابة الشمالية لبلاد الشام، ومسيطرا على واحد من أهم الموانئ البحرية على البحر المتوسط؛ والأهم من ذلك مواجهة شاطئ الإسكندرونة لشواطئ قبرص، الجزيرة التي تقع على مدخل أوروبا، والتي تعد نقطة عبور متصلة بقارتي آسيا وأوروبا. والسيطرة على هذه الشواطئ تمثل ضمانة قومية للدولة المسيطرة عليه تجاه أي اعتداءات عسكرية خارجية، وتجاه التهريب والهجرات غير الشرعية.

وقد لاقت هذه السياسة معارضة شديدة لدى السوريين من يومها، ولا يزال السوريون إلى اليوم يعدّون إقليم الإسكندرونة إقليما سوريا عربيا، رغم كل المتغيرات التي لحقت به منذ ما

يقارب مئة عام، ولا يزالون ينظرون إلى ذلك اللواء كقطعة قدّت من جسدهم، وسيستعيدونها يوما ما.

وبطبيعة الحال لا نقصد التبرير السياسي لهذه التصرفات من قبل بعض الدول، أو التهوين من شأن الاستحواذ السياسي على مقدرات الأمم، إنما لاستلفات النظر لأهمية الجيوبوليتيك السياسي، والذي يمكن أن تتعاطى معه الدول اليوم بطريقة أخرى غير ما هو عليه الأمر في هاتين الصورتين.

كذلك تعاطت، وتتعاطى الصين مع المنطقة الأوراسية «سهوب أوراسيا البرية» المهدد التاريخي لها على حدودها، والتي تصالحت معها مؤخرا وحولت العلاقة من السلب إلى الإيجاب، على الأقل من خلال مشروع الحزام والطريق؛ كون الجغرافيا الأوراسية هي قلب هذا المشروع، حتى تخوم خراسان الفارسية، إلى جانب المشاريع الاقتصادية والسياسية الأخرى. وقريبا من هذا أيضا السياسة الروسية تجاه دول البلقان.

فيما يتعلق بالمملكة العربية السعودية والجمهورية اليمنية، يشكل البلدان وحدة جغرافية أمنية واحدة؛ كون أمن المملكة العربية السعودية القومي يبدأ من باب المندب، لا من منفذ حرض أو منفذ الوديعة، كذلك الشأن مع اليمن، يبدأ أمنها القومي من حدود الشام، حيث حدود المملكة العربية السعودية الشمالية، لا من منفذ الوديعة أو منفذ حرض. وذات الشأن أيضا مع عمان؛ لأنَّ للجيوبوليتيك السياسي منطقه الخاص، خلافا للحدود السياسية.

وهو ما يجعلنا نقرر أنّ منطقة شرق أفريقيا أيضا عمق استراتيجي لليمن، كان على اليمن أن تكون حاضرة في هذه المنطقة بقوة، خاصة وثمة ما يبرر هذا الحضور، وحين نتكلم عن حضور اليمن في شرق أفريقيا فهو الحضور الإيجابي القائم على المصالح المتبادلة مع هذه الدول، مصالح الند للند، وفق مبدأ لا ضرر ولا ضرار بينها جميعا. فثمة مشترك تاريخي وعرقي بين الطرفين، إضافة إلى المصالح المشتركة مستقبلا.

إن كثيرًا من حروب المنطقة التي دارت منذ آخر الأربعينيات من القرن الماضي إلى اليوم كان مسرحها البحر الأحمر، ابتداء من احتلال جزر أم الرشراش الفلسطينية «إيلات»، فالعدوان الثلاثي على سيناء في شمال البحر الأحمر، فحرب 67م، وأيضا حرب اكتوبر 73م، ثم الصراع الأثيوبي الإرتيري لم يكن في حقيقته، أو في جزء كبير منه إلا صراعًا على البحر الأحمر، وأيضا الصّراع الإرتيري اليمني في منتصف تسعينيات القرن الماضي، فالصراع المصري السوداني على شلاتين وحلايب حاليا، وصولا إلى الصراع الناعم اليوم لأكثر من طرف، من بينهم لاعبون جدد، وبعضهم عائدون إليه وقد ودعوه من قرون.

تستوجب الاستراتيجية اليمنية القادمة استغلال الروابط التاريخية والدينية بين اليمن من جهة، وشرق أفريقيا من جهة أخرى، خاصة إرتيريا، وتبادل المنح الدراسية بين الدولتين، وأيضا التبادلات الثقافية والسياحية، وتأسيس المراكز الثقافية والعلميّة فيها، لردم الهُوّة الكبيرة التي تخلقت خلال العقود الأخيرة، بفعل لاعبين آخرين تمددوا في الفراغ الذي تركته

السياسية الخارجية اليمنية. والحقيقة أنه لا مناص بالنسبة لليمن من العمل على تحسين علاقتها بدولة إرتيريا، وبقية دول شرق أفريقيا، في المدى المنظور والقريب، على الأقل درءًا لما قد تتسبب به من إضرارٍ لليمن، ومن ناحية ثانية فإن تحسُّن العلاقات السياسية بين البلدين هو لمصلحة البلدين الجارين على حد سواء، وليس لليمن فحسب.

الحدود الثقافية للدول

إلى جانب الحدود السياسية للدول، هناك أيضا الحدود الثقافية التي أخذت، وتأخذ أبعادًا جديدة في الصراع، خاصة مع انتشار وتوسع وسائل الاتصال ومنصات التواصل الاجتماعي.

وبالنظر إلى المنظومة الفرانكفونية نجدها أكثر رابطة دولية تهتم بالحدود الثقافية، لهذا نشرت فرنسا ثقافتها ولغتها في المغرب العربي «الضفة المقابلة» لها، حماية لأمنها الثقافي، وكذلك تفعل إيران مع بعض الدول المجاورة، بل وغير المجاورة في أفريقيا وفي المنطقة الأوراسية. وكذلك تفعل تركيا مع قبرص واليونان.

يقطن شرق أفريقيا نسبة كبيرة من السكان الأفارقة الذين ينحدرون من أصول يمنية، هاجروا عبر الأزمان إلى الحبشة في التاريخ القديم والمعاصر، ولا تزال هذه المنطقة إلى اليوم محطة للهجرة اليمنية والسُّكنى والأنشطة الاقتصادية والثقافية لآلاف اليمنيين. وقد مثلت أثيوبيا في النصف الأول من القرن العشرين

حتى مطلع الستينيات محطة نضالية وسياسية للتجار اليمنيين المهاجرين هناك ضد حكم بيت حميد الدين.

كما يقطنُ في اليمن أيضا آلاف الأفارقة الذين تماهوا في النسيج المجتمعي اليمني، وصاروا جزءا منه، وخاصة في المدن الساحلية، في الجنوب والشمال على حد سواء. تمثل هذه الحالة فيما تمثل رافعة سياسية في العلاقات الإيجابية بين المنطقتين.

نحو استراتيجية بحرية شاملة

يتوجب على اليمن صياغة استراتيجية بحرية شاملة في مختلف المجالات، على الصعيد الاقتصادي والعسكري والأمني والاقتصادي، درءًا للمخاطر التي تحدق باليمن من بَحريه: العربي والأحمر، واستغلالا لإمكانياته ومقدراته التي يفيض بهما هذان البحران، وأهمها الثروة السمكية.

إن بقاء أغلب الجزر اليمنية خالية من السكان خطر أمني وسياسي، وعلى الدولة تأهيلها بخدمات البنى التحتية وتشجيع المواطنين على سُكناها، وإن بقاء الموانئ والمراسي اليمنية تعمل بالطرق التقليدية القديمة غير مجدٍ اليوم، مع التطورات الجديدة، وإن ترك الحدود البحرية غير محمية بقوات يمنية عرضة للمخاطر، التي منها الصيد البحري الجائر بالطرق العشوائية، وفي غير مواسم الصيد، ناهيك عن جرف الثروات

الأخرى من باطن البحر من قبل بعض القراصنة من الدول المجاورة.

يجب تطريز السواحل اليمنية بالمدن الجديدة، بما تحتوي عليه هذه المدن من خدمات البنية التحتية، والاهتمام بالبيئة، وتشجيع السياحة البحرية والصحراوية، ورفد ذلك بالمَزارع ذات الأنظمة الحديثة على امتداد السواحل اليمنية، وإنشاء المصانع ذات العلاقة بالثروة البحرية، والتعاون مع مشروع «نيوم» الجديد على الجهة الشمالية للبحر الأحمر الذي تقوده المملكة العربية السعودية.

4

الكيان الإمامي عدو اليمن الأوحد

يتصارعُ الناسُ بعضهم مع لبعض منفردين، كما يتصارعون مع غيرهم مجتمعين، أي كما يكون صراعَ أفراد يكون أيضا صراع مجتمعات، وقد يتطور هذا الصراع على شكل صراع إمارات أو دول أو إمبراطوريات، أو صراع شرق وغرب، وهكذا. ولكل مجتمعٍ أدواتُه الخاصّة في هذا الصّراع.

من بين هذا الصّراع صراعُ القيسية[1] واليمانية سابقا، الذي تَسَمّى أيضا «الصراع القحطاني العدناني». ومنه صراع «يثرب» قبل الإسلام بقبيلتيها الأوس والخزرج اليمنيتين مع مكة الفرع العدناني، وتتوج بالصّراع القرشي اليمني فيما بعد، ولا يزال، وكتب التاريخ تمتلئ بشواهد هذا الصراع شعرًا ونثرا. ومن ذلك ما ورد في شعر حسان بن ثابت الذي هجا أهل مكة بعد الإسلام، وإن كان ظاهرُ الهجاءِ لشركهم ومناوءة الدعوة الجديدة، إنما بذرةُ الصّراع الاجتماعي السّابق واضح فيه. ومن يتتبع ديوان حسان بن ثابت يجد أن أكثر من نصفه في الفخر بيمانيته، ومنازلة قريش ومن في حُكم قريش، ممن سماهم الأدعياء؛ مُقتصرًا في مدحه للنبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه وكبار الصحابة فقط، وفقًا لشارح ديوانه.

1 نسبة إلى قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، ومنهم تنحدر القبائل القيسية.

إلى جانبِ حسان، شاعر يماني آخر، يلقب بالنجاشي[1] يهجو قريشًا، ويلقبها بالسخينة، والسخينة طعام رقيق من دقيق وسمن كان الوجبة المفضلة عند القرشيين:

سخينة حي يعرف الناس لؤمها   قديمًا ولم تُعرف بمجد ولا كرم

فيا ضيعة الدنيا وضيعة أهلها   إذا ولي الملك التنابلة القزم

وعهدي بهم في الناس ناسٌ وما لهم   من الحظ إلا رعية الشاة والغنم

وعلى أية حال، فقد جاء الإسلامُ بفكرته الواسعة، ماحيًا للعصبية بأشكالها، من قبلية وعرقية، فلاقت قبولا واسعًا لدى اليمنيين المنتمين إلى حضارةٍ من آلاف السنين، لكن بعضَ الجماعاتِ لم تستسغ هذه الفكرة، لضيق أفقها، وتحوصلت حول نفسها، مدعية الأفضليّة على غيرها، فكان من الطبعي أن تأتيَ عملية رد الفعل، دفاعًا عن الذات، فعاد التلاحي الأدبي، ممثلا في الشعر بدرجة رئيسية، بين شعراء كل جماعة، وتطورت إلى الدوامغ والملاحم كما سنرى.

ربما كانت هناك ملامح خافتة في مرحلة صدر الإسلام الأولى، لكنها تظهر لتختفي، إنما تبدت بصورة أوضح في القادسية بين النخبة المقاتلة اليمنية التي كان لها الفضل في معارك الردة، وفي اليرموك والقادسية وغيرها من جهة، وبين

1 قيس بن عمرو بن مالك بن الحارث بن كعب بن كهلان. شاعر هجاء مخضرم اشتهر في الجاهلية والإسلام وأصله من نجران باليمن انتقل إلى الحجاز واستقر في الكوفة وهجا أهلها. كانت أمه من الحبشة فنسب إليها.

الأرستقراطية القرشية، وإلى هذه الحالة آنذاك أشار عمرو بن معدي كرب الزبيدي شعرا، عقب القادسية بقوله:

إذا قُتلنا ولا يبكي لنا أحـــــدٌ   قالت قريشٌ ألا تلك المقاديـــــرُ

ونحن بالصفّ إذ تُدمى حَواجِبُنا   نُعطى السويَّةَ مماّ يُخلِصُ الكِيرُ

نُعطي السَوِيَّةَ من طعنٍ له نَفَذٌ   ولا سَوِيَّة إذ تُعطى الدنانيـــرُ

وتتالت هذه النزعاتُ لاحقا في العهد الأموي؛ بل كانت أحد أدوات السياسة الأموية التي استعانت باليمانية ضد العلوية؛ كون اليمنيين وارثي تقاليد دولة بأنظمتها وإدارتها في الوقت الذي كان غيرهم لا يحملُ فكرةَ الدولة، باعتباره ابن البداوة الموغلة في بداوتها.

وخلالَ هذه الفترة انتقل الصراعُ القحطاني العدناني إلى خارجِ الجزيرة العربية، بانتقال الفاتحين أنفسهم من عدنانيين وقحطانيين، فشهدنا صراعا بين الفاتحين العرب المسلمين في الشام والعراق والأندلس تحديدا، قائما على فكرة القحطانية والعدنانية، إلى حد قيام معارك عسكرية دامية بين الطرفين، كما في معركة «شقندة» بالأندلس عام 130 هـ بين يوسف بن عبد الرحمن الفهري وحلفائه القيسية بقيادة الصميل بن حاتم، حفيد شمر بن ذي الجوشن قاتل الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب، واليمانية بقيادة أبي الخطار الكلبي. وانتهت

بانتصارِ القيسية على اليمانية ومقتل أبي الخطار الكلبي. واستمر كذلك حتى العصر العباسي فما بعده.[1]

والحقيقة لم تكن الدوامغ والملاحم الأدبية إلا أحد أوجه هذا الصراع من زمنٍ قديم وإلى اليوم، استقصيناها بتفصيل في كتابنا: الهادوية بين النظرية السياسية والعقيدة الإلهية؛ علما أن مفردتي «القحطانية والعدنانية» كانتا من أدبيات رجالات الحركة الوطنية في الثلاثينيات والأربعينيات، استدعاء للمجد العاثر، الغائب/ المغيب بفعل سياسة الإمامة، وهو ما فطن له ولي العهد أحمد حينها، فنافس الأحرار في هذا المجرى فاستعار اسم «سبأ» لصحيفة أسسها عام 1949م، وأسندها إلى أحد مقربيه، تظاهرًا منه بالانتماء للمجد السبئي الذي انطلق منه بعض الأحرار في معارضتهم للإمامة التي يرونها دخيلة على اليمن. وأعلنها بصورة أوضح عبد الرحمن البيضاني في العام 1962م.

---

1 تفاخر الشاعر أبو نواس بقحطانيته على قربه من الخليفة الرشيد ومجالسته له، لكنه إلى يمنيته أقرب منه إلى بلاط الخليفة؛ حيث يقول:

بَل نَحنُ أَربابُ ناعِطٍ وَلَنا صَنعاءُ وَالمِسكُ مِن مَحارِبِها

وَكانَ مِنّا الضَحّاكُ يَعبُدُهُ ال خائِلُ وَالوَحشُ مِن مَسارِبِها

وَدانَ أَذواؤُنا البَرِيَّةَ مِن مُعتَرِّها رَغبَةً وَراهِبِهـــا

*** *** ***

فَافخَر بِقَحطانَ غَيرَ مُكتَئِبٍ فَحاتِمُ الجودِ مِن مَناقِبِهـا

وَلا تَرى فارِسًا كَفارِسِها إِذ زالَتِ الهامُ عَن مَناكِبِهـا

ومثل أبي نواس المتنبي حين تفاخر بأصوله اليمانية قائلا:

قضاعة تعلم أني الفتى الذي ادخرتْ لصروف الزمـان

ومجدي يدل بني خندف على أن كل كريم يماني

وما درى المسكين أنه «يدهنُ على جَرَب» أو يعالج أعراضَ المرض، وينسى المرض ذاته.

ويستمر صراع اليمنيين مع خصمهم الدعي للأفضلية عليهم بمجيء الغازي يحيى حسين الرسي إلى اليمن فارًا من عدالة الدولة العباسية، آخرَ القرن الثالث الهجري، ضمن مَن فروا من العلويين إلى أطراف البلاد الإسلامية آنذاك، إلى الجيل والديلم والمغرب العربي واليمن بجبالها المنيعة وحصونها الشاهقة، البعيدة عن مركز الخلافة القائمة. وواصل أبناؤه وأحفاده هذا الداء، فأدرك بعضُ اليمنيين هذا الخطرَ القادم آنذاك، القائم على المسخ الثقافي للشخصية والهوية، واستبدال الثقافة الأصيلة بهوية وافدة، حتى انبرى مثقفُ عصره ورائدُ قومه آنذاك أبو محمد الحسن بن أحمد الهمداني، مدافعًا عن هُويته وتاريخه وحضارته، وكان من أمر محاربته والكيد له ما كان. ومهما يكنْ فقد وضع اللبنات الأولى للفكرة اليمنية، باعثا أمجادها التاريخية وهويتها الحضارية التي لا تزال كعبة الباحثين إلى اليوم، من خلال موسوعته العلمية الرائدة «الإكليل» وأيضا «صفة جزيرة العرب» وغيرهما.

ويستمر الصلف السلالي في الاستكبار والتعالي، مدعيًا أفضليته على أهل الأرض من الملوك القحطانيين الذين آووا هذا الشريد وأغاثوه بعد لهفه، مستغلين فراغًا اجتماعيًا تشكل خلال فترات الضعف، وتراجعًا في البناء الحضاري، ولكن لينبري مناضل آخر هو نشوان بن سعيد الحميري، مُخاطبًا القوم:

أَزعمتمُ أن النُّبُوَّة سَرْمُــد ... قلتم: لكم إِرْثُ النبوّة دوننا

إن النبوة بالنبي محمـد ختمت وقد مات النبي محمد

منكم نبيٌّ قد مضى لسبيله قِدْماً فهل منكم نَبيٌّ يُعبَدُ

وشكلَ نشوان بموقفه «اليمني/الوطني» حائط صد، وسُورا منيعًا يمنيًا تجاه الكهنة السُّلاليين، مواصلا دور الهمداني الريادي في النضال، ولا يزال إلى اليوم رائد مدرسة يمنية قائمة، كالهمداني من قبله، وكغيره من الأقيال اليمانية الذين انتموا لحضارتهم، وانتصروا لهويتهم.

لقد أنكر عليهم قبحَهم بعضُ بني جلدتهم من ذوي الضمير الحي والخلق القويم، كالعلامة ابن الأمير الصنعاني الذي خاطب بني عمومته القاسميين، وقد أوغلوا في القتل والنهب والسلب، قائلا:

ويا عصبة من هَاشِم قاسميّة إلى كم ترون الجور إحدى المفاخر

ومن دون هَذا أخرج الترك جدكم ولو عاش أخلاكم بِحَدِّ البواتر

وأحللتم ما حرم اللّه جهـرة وشر ذنوب الخلق ذَنب المجاهـر

وجوزتم أخذ المكوس بأرضنا وتوفيرها ظلمًا على كل تاجـر

وقلتم نرى فيها مصالح للورى ورَبُّكُم أدرى بكل الضمائـر

تساويتم في كلِّ قبحٍ فعلتُم أكابركم في فعلهم كالأصاغر

أتيتم بأصناف الضّلالات كلها وجئتم بأنواع الأمور المناكر

إن «تذمرات» عمرو بن معدي كرب في القرن الهجري الأول، و «صيحة» نشوان في القرن السادس الهجري، وتوجُّعات ابن الأمير الصنعاني في القرن الثاني عشر الهجري، هي ذاتُها «زفرات» الزبيري في القرن العشرين الميلادي، مخاطبا ذات الكيان الشرير، بقوله:

يا شعبنا نصف قرنٍ في عبادتهمْ لم يقبلوا منك قُرباناً تُؤديهِ

رضيتهم أنت أرباباً وعشت لهم تُنيلهم كل تقديسٍ وتأليهِ

لم ترتفع من حضيض الرقّ مرتبةٌ ولم تذق راحةً مما تقاسيهِ

ولا استطاعت دموعٌ منك طائلةٌ تطهير طاغيةٍ من سكرةِ التيهِ

نبني لك الشرفَ العالي فتهدِمُهُ ونَسحَقُ الصّنَمَ الطاغي فتبْنيهِ

نَقْضي على خصمكَ الأفعى فتبعثُهُ حَيًّا ونُشعُلُ مصباحًا فتُطْفيهِ

قَضَيْتَ عُمْرَكَ ملدوغاً وهـا أنا ذا أرى بحضنكَ ثُعباناً تُربّيهِ

وهي كذلك «تقريرية» البردوني في صورة جامعة، يقول فيها:

من أين أبتدئ الحكاية؟وأضيع في مد النهاية

وأعي نهايةَ دورها فتعود من بدء البداية

تصلُ الخطيئة بالخطيئة والجناية بالجناية

من عهد من وُلدوا بلا سببٍ وماتوا دون غاية

المسبلين على الذئاب البيض أجنحة الرعاية

الناسجين عروقهم لمواكب الطاعون راية

من حوّلوا المستنقعات الجائعات إلى النفاية

أنصاف آلهة مطوقة بأسلحة العنــــايــة

ووجوههم كاللافتات على مواخير الغوايــة

كانوا ملوكا ظلّهم حرم ورقيتهم حمايــة

فلحومنا لخيولهم مرعى وأعظمنا سقــايــة

وبيادر تعطيهم حبّات أعيننا جبـــــايــة

والله والإسلام في أبواقهم بعض الدعــــايــة

أيام كانت للذباب على الجراحات الوصايــة

أيام كان السّلُّ يأكلنا وليس لنــا درايــة

وأبي يعلمنا الضَّلال ويسأل اللــه الهدايــة

ليس ذلك فحسب؛ بل لا يزال الحالُ من بعضه كما يُقال، فلا تزال المدرسة الهمدانية النشوانية الزبيرية البردونية متواصلة حتى اليوم، من خلال تذمرات وصيحات وزفرات وتوجعات أبناء اليمن ضد هذا الكيان الشرير، كما نلمح في قصيدة للشاعر غائب حواس، بقوله:

لم يُبْقِ "آلُ البيتِ" بيتًا واحــــدًا — إلا وشبّوا فيه نارَ مآتــــم

لم يتركوا فيها جدارًا قائمًـــــا — إلا رموهُ بألفِ مِعوَلِ هــادمِ

لم يتركوا من أرض حِمْيَرَ مَوضِعًا — إلا وصبّوا فيهِ نقمةَ ناقِمِ

حقدٌ مَجُوسيٌّ مغوليٌّ بـــــــهِ — ثأرُ التتارِ مع انتقامِ أعَاجِمِ

أحلامُ كسرى في خِداعِ يَهُـودَ في — أوثانِ رُومَا في مكائدِ هاشمِ

وكما نتملى ذلك بوضوح في قصيدة الشاعر زين العابدين الضبيبي:

بين لصٍ وناهبٍ سرقَ «الآلُ» راتبـــي

قيلَ جاؤوا بثورةٍ نصرةً للمطــــالبِ

ثم في ظرفِ ليلةٍ نتفوا نصفَ شاربــــي

مذ غدا كل همّهم في اجتياحِ المكاتـــبِ

باسم تطهيرِ أهلها أو لنهبِ المناصـــبِ

ثورةُ الجوعِ أصبحتْ تخمةً للأقــاربِ

صرخوا في وجوهنا من جميعِ الجوانـبِ

نهبوا قوتَ أهلنا باسم جهد المحــــاربِ

صهينونا وأمركوا في تعزٍّ ومــــــاربِ

ودعونا لدعمهمْ جُد أيا شعبنــــا الأبي

رحلوا البنكَ صعدةً يا مســاءاتُ واربــي

بعد ترحيلِ نصفنا زوملوا في المــــآدبِ

فقضى الشعب نحبهُ بين فقرٍ وعــــازبِ

مذ غدا اللص مشرفًا سيئا في التخاطـبِ

قيل جاؤوا لنصرتي ثم باعوا جواربــــي

سرقَ الآلُ لقمُتي مذ غدا الصمتُ صاحبي

ورموا بي إلى الردى والوجى والعقـــاربِ

وإذا قلتُ جائعٌ قيل لي: أنت ناصبــــــي

ارحلوا يا بني واغربوا بالتعـــــــاقــبِ

لعنَ اللهُ زيفكمْ يا غُثاءَ الطحــــالــبِ

يعيشون جوعى، يموتون غرباء

أطولُ قصّة نضال في تاريخِ الإنسانية قاطبة هي قصة نضال اليمنيين، والسبب الإمامة.

أكبرُ شلال دم عبر التاريخ نزف وينزف هو دماء اليمنيين، والسبب الإمامة.

أغزر دموع حزنٍ نزفت من مآقيها الحزينة هي دموع اليمنيات، والسبب الإمامة.

أوسع تشرد في التاريخ هو تشرد اليمنيين، والسبب الإمامة.

أسوأ مظلمة إنسانية في التاريخ هي مظلمة اليمنيين، والسبب الإمامة.

تناضلُ الشعوبُ والجماعاتُ عادة لعام، لعامين، لعقدٍ، لعقدين، لقرنٍ، لقرنين من الزمن، ثم تحسم أمرها وينتهي الظلم، ليعمَّ السلم ويبدأ الرخاء؛ عدا اليمنيين فإنّ نضالهم وجعٌ ممتد منذ أكثر من ألف عام، واصلوا فيها الأنين بالأنين والحنين بالحنين والدم بالدم، ولا يزالون!

لم تخلُ سنة واحدة على الإطلاق من كوارث الحروب ومآسي الاقتتال منذ دخل المجرم السفاح يحيى حسين الرسي أرضَ اليمن وإلى اليوم. من معركة إلى معركة، ومن حرب إلى حرب، ومن فتنة إلى فتنة.

منذ العام 284هـ، حتى اليوم وشلال الدم سيالٌ لم يتوقف.

منذ ذلك الحين وأرواح اليمنيين تُزهقُ على الآكام والتلال، وبين الصحارى والوديان؛ إما مدافعين عن عدالة قضيتهم الإنسانية، أو مغررًا بهم في حشود أبناء وأحفاد الرسي!

ولعمري، لو قدر لتلك الدماء أن تتجمع في مكان واحد منذ ذلك الحين وحتى اليوم لكان بحرًا إلى جانب البحر الأحمر. ولو قدر لتلك الجماجم أن تتكوّمَ لكانت جبلا يفوق جبل شعيب بصنعاء!

يفاخرُ إخوانُنا الجزائريون بكونهم «بلد المليون شهيد» تجاه الاحتلال الفرنسي، وما دروا أنّ بلدًا عربيًا في جنوب الجزيرة العربيّة هو اليمن بلد المئة مليون شهيد منذ ما يزيد عن ألف عام.

منذ جاء الرسي ودمع اليمنيّاتِ سيالٌ منهمرٌ كالسيل لفقدان: الابن، الأخ، الزوج، الأب، القريب، الجار، في فتنة تاريخيّة لم يشبعوا منها منذ أكثر من ألف عام! لم تبك نساءُ شعبٍ في الأرض كلها كما بكت اليمنياتُ على أقاربهن. واستقرئوا كل حروب الإنسانية وصراعاتها عبر التاريخ فلن تجدوا للحالة اليمنية نظيرًا أبدًا.

يقول يحيى حسين الرسي، إمامُهم الأول شعرا:

الطعن أحلى عندنا من سلـوة — كر الجوامس حين طال ظماها

والروس تُحصد بالسيوف ألذ من — بيضاء ناعمة تجر رداهــــــا

والسائلات من الدماء فواغـرا — عظمت فقسط الزيت لا يملاها

أشهى وأعجب من صبوح مدامة — في القلب يظهر غيَّها ورداهــــا

وجماجم القتلى لأرجل خيلنـا في الكر تقرع فوقها وتطاهـــا
والرُّمح في كفي كأن سنانــه نجم المجرة لاح في أعلاهـــا

لم يتشرد شعبٌ في التاريخ كما تشرد الشعبُ اليمني، بمن في ذلك اليهود في أثناء السبي البابلي. هلكت أرواح اليمنيين في البر والبحر والجو وهي تبحث عن مأوى آمن، ولقمة عيش كريمة، وقد سطت الإمامة على أرضهم وصادرت ممتلكاتهم. وسلوا هضاب شرق أفريقيا الداخلية كم ابتلعت سهولُها وأنجادُها من أرواح في النصف الأول من القرن العشرين. وسلوا أرض الصين والهند وإندونيسيا كم شردت الإمامةُ من اليمنيين إليها في أثناء حكم آل القاسم؛ بل وسلوا أمريكا والغرب كله عن هجرات اليمنيين وغُربتهم، وعن مآسيهم الدامية منذ عقودٍ طويلةٍ من الزمن وإلى اليوم! واقرؤوا إن شئتم "يموتون غرباء" لمحمد أحمد عبد الوالي، أو "غريب على الطريق" لمحمد أنعم غالب. واقرؤوا "غريبان وكانا هما البلد" للبردوني، و"البالة" لمطهر الإرياني؛ بل واقرؤونا نحن اليوم صفحاتٍ ماثلة أمامكم: مشردين في أصقاع الأرض. في الخليج ومصر وأفريقيا وتركيا وبريطانيا وماليزيا والشام وكندا وكل دولة من دول العالم لا تخلو من يمني بئيس مشرد، والسبب الإمامة.

مذ جاءت الإمامة وحياةُ اليمنيين حرب، وحربهم حياة، بين كل معركة ومعركة معركة ثالثة. وبين كل مأساة ومأساة مأساة أخرى. بين كل قتيل وقتيل قتيلٌ ثالث. نصِلُ الدمعة بالدمعة، والشهقة بالشهقة، والوجع بالوجع، والسبب الإمامة!

مأساة اليمنيين لا تشبهها مأساة.

وجع اليمني غير.

ألُمه مختلفٌ عن كل الآلام.

وجعٌ مركّب، وآلام مضاعفة.

متألمٌ في الداخل، متألم في الخارج.

ووحدهم كرادلة الإمامة من يبنون القصور ويتلذذون برغد العيش!

لم تهدأ حياةٌ ليمني قط بسبب سرطان الإمامة.

رئيس مغدور وآخر مشرد.

تاجر مقتول وآخر منفي.

سياسي معتقل وآخر نازح.

مثقف مسجون وآخر ضائع.

طفل يتيم وآخر عليل.

مواطن مريض وآخر جاهل، والسبب الإمامة!

هذه قصة اليمنيين، أنجال الملوك من قحطان وأحفاد الأنبياء، وهؤلاء أعداؤهم التاريخيون. والحال كما قال البردوني:

وتهنا وحكامنا في المتاه سباعٌ على خطونا حـــــــوّم

فهم يقتنون ألوفَ الألوف ويعطيهم الرشوةَ المعـدم

ويبنون دُورًا بأنقاض ما أبادوا من الشّعب أو هدموا

أقاموا قصورًا مداميكها لحومُ الجماهير والأعظــم

أخي إن أضاءت قصورُ الأمير فقل: تلك أكبادنا تُضرم

تلاشى أعداء اليمن التاريخيون والطارئون، ووحده العدو الإمامي باقٍ بينهم، ينخر عظامهم ويستنزف دماءهم، لم يتوقف يوما ما عن مكره وخبثه وتدميره.

تشترط كل دساتير العالم وقوانينه فيمن يترشح لرئاسة بلاده أن يكونَ من أبناء ذلك الوطن، إلا في اليمن فممنوع على اليمني أن يحكم أرض آبائه وأجداده! ليس ذلك فقط، بل وحسب السفاح عبد الله بن حمزة:

أمَّا الذي عند جدودي فيه فيقطعون لسْنه من فيه

ويُيتّمون ضحوة بنيه إذ صَار حق الغير يدعيْـــــه

وحق الغير المقصود به هنا هو حقهم في الإمامة التي يعدونها من حقوقهم الخاصة التي لا ينازعهم فيها أحد!

ما يزيدُ عن 1200 عام، لم تشهد اليمن حالة من الاستقرار السياسي والاجتماعي إلا في النادر اليسير جدا، بسبب فوضى النظرية وجنون تعاليمها، في حالة من المد والجزر، لم تنته معركة إلا لتبدأ أخرى، ولم يسقط إمام إلا ليقوم بدلا منه إمامٌ آخر.

هذه الحالةُ طبعتْ النَّفسِيَّةَ اليَمنيَّةَ، سواء على الصعيد الشخصي أو الجمعي بطابعِ الحذرِ الدائمِ والتوجس المستمر من الآخر، ولم تكن العَلاقة الاجتِمَاعيَّةُ علاقةً طبعية في غالبها، يغلبُ عَليْها الأمانُ والطمأنينةُ، كما كان عليه الأمر سَابقا قبلَ الإِسْلام مثلا؛ لذا لجأ النَّاسُ إلى الاحتماءِ بالطبيعةِ لقساوتها في حد ذاتها؛ حيثُ سَكنَ الشَّواهقَ الجبليَّة، فلا يكادُ يخلو شاهقٌ

أو مرتفعٌ على طُول اليَمَنِ وعرضِه من بيتٍ أو آثارِ بيتٍ أو حصنٍ منيع لهذا السبب، مع أنَّ المكان الطبعي للسُّكنى في المنبسط من الأرضِ أو القريبَة من الوديانِ، كما هو الشَّأنُ لدى كل الأممِ في شتى بقاعِ المعمورة. وظلت هَذِه العادةُ إلى اليَومِ راسخةً في الذهنيَّة العَامَّةِ، وفي نفسِ كل يمنيٍ، مع ما أصبحَ يمتلكه من مقوماتِ الدفاع عن نفسِه من السِّلاح الفتاك بالأعداء، ومع وجودِ الدَّولَةِ ولو في حدها الأدنى. إنَّها حالةٌ من الشُّعور بالخوفِ أو عدم الطمأنينة، تسكن أعماقَ أعْماقه، شَعرَ بذلك أم لم يشعر. ويبدو أنَّ التخلصَ منها أمرٌ بعيدَ المنال؛ لذا تُعدّ اليَمَنُ من أكثرِ الدول العَربيَّةِ توزعًا سُكانيا، فهي تفوق مصرَ البلد الكثير السُّكان، في هَذا الجانبِ أكثر من الضعف تقريبًا لهذا السَّبب! ولم تكن ظاهرةُ حملُ السلاح الناري أو التمنطقِ بالسِّلاح الأبيض «الجنْبِيَة» إلا أحدُ أشكالِ وتمظهراتِ هَذا القلقِ الدائمِ، وضعف الطمأنينةِ، على الأقل لدى مناطقِ الشمال اليَمني وبعضِ مناطقِ الشَّرق منه!

لهذا السَّببِ ولغيره من الأسْبابِ تعززتْ في النَّفْسِ اليَمَنِيَّةِ فكرةُ الهجرةِ والاغترابِ عن الوطَن، وشكلَ اليَمَني بمعارفِه وخبراتِه وتفانيه عاملَ بناء وتقدم للآخرين خارجَ وطنِه، في الوقتِ الذي يحتاجُ وطنُه لنصف تلك الجهود منه؛ بلْ لقد تم استغلاله خارجَ وطنه بصورةٍ تبعثُ على الأسى والحزن، كما تم هَجر الأرض اليَمَنِيَّةِ على خُصوبةِ تُربتها، وتُركتْ هَملا من قبل أهلها؛ لأنَّ ناتج ثمرتها لم يعد في يده، بقدر ما يؤولُ ظلمًا إلى الإمَامِ أو حاشيتِه، فكانت تلك المشاهدُ والمآسي الإنسانيَّة التي

نقرأ عنها ونسمعُ، خَاصَّة في الريف اليَمني، الذي مثل مسرحًا دراماتيكيًا لأحْداثٍ لا تخطرُ على ذهنِ الشَّيطان.

ذاتُ الشَّأنِ نفسِه مع التجارةِ التي كادتْ أن تنتهِيَ تمامًا من ثَقَافَةِ المجتَمع، مع أنَّ المُجتَمعَ اليَمَنيَّ تاريخيًا ومنذ آلاف السنين قد تميزَ بهاتين الحرفتينِ على غيره من الشُّعوب وبرع فيهما، وهما الزراعة والتجارة؛ لكن عصورَ الإمَامَةِ كادتْ أن تجعلهما نسيًا منسيًا؛ لأنه يستحيلُ وجود زراعةٍ أو تجارة، أو هما معًا في ظلِّ مجتمعٍ مُضطربِ أمنيًا وسِياسيًا، فهما ابنا الأمنِ والأمانِ ونتاجه؛ علمًا أن صَنعاءَ قد كانتْ يومًا ما واحدًا من أشهرِ أسْواقِ العَرَبِ التاريخيَّة؛ بل لقد كانتْ اليَمَنُ من أهم دول العالم المسيطرةِ على التجارة العالميَّة سَابقا، ومنها وعبرها تمر أغلى السِّلع العالميَّة وأثمنُها، وكان اليَمَنيُّون بحارينَ مهرةً، لا تضاهيهمْ أمَّةٌ في الدنيا في هَذا الفن.

وتعكسُ هَذِه القصيْدةُ من الشعر الشعبي طرفًا من تلك الحالةِ الفوضويَّة التي كانتْ عليها فَترَاتُ الإمَامَةِ في غالبها، لشَاعرٍ غير معروف، تُفلسفُ دلالتُها طَبيْعَةَ الصِّراع، ونوع المواجهَة، وكيفيَّة التعاملِ معها من قبلِ العَامَّةِ الذين أصْبحوا مُدركين حقيقةَ كل تلك الصِّراعاتِ على جهلهم وبساطتهم، يقول:

حين قالوا: هيا شرق يا قبيلي قلت هيا مَرَه، قومي وهاتي صميلي

أصبحت بين دولتين أغتنمها شوري اليَوم شور، والقيل قيلـــــي

قبلمـــا يسبروا يسدوا علي ذاك يا صنو لك، وهـــــاذاك لي، لي

وأنت سرْ لك هناك واذبح وهات قات واعصدي يا مَرَه، وزد يا قبيلي

أجرة العسكري والا باب سيدي القصب والحبوب وأدي حمولـــي

كهانة وتجهيل

لقد عمل هذا الكيان الشرير على تدمير بنى المجتمع، وتقطيع أواصره، وقد ضرب قبيلة بقبيلة، كما أعلن أحمد بن سليمان. وعمل على السيطرة على المجتمع عبر فقهائهم من رجال الدين الذين نصبوا أنفسهم أوصياء على الخلق، من لحظة الميلاد إلى الوفاة، وتأمل معي: «امسيد» هو الذي يسمي المولود بالتنجيم، وهو الذي يكتب له الحُروز والتمائم بعد ذلك حين يصاب ببعض التقلصات أو أمراض الطفولة، وهو الذي يستقبله بعد ذلك في الحوزة «المعلامة»، فيلقنه تعاليمه الخاصة، فإذا ما شبّ وتزوج فإنه من يعقدُ له قرانه بزوجته، فإذا مات والده جاء لقسمة التركة، ليأخذ أثمنها، بعد أن يكون قد أخذ منها الخُمس. كما يشاركه بقيتها بحيل أخرى لن يعدمها، ويظلُّ لزيمَه حتى الممات بدفنه ومرافقته إلى قبره، وخلال هذه المحطات كلها يستأثر من ماله بما لذ وطاب، وبما خلف وزنه وغلا ثمنه. إنها حالة من الكهنوت الديني السياسي معا الذي يعمدون إليه. وهكذا جهّلت السلالة عامة الناس عمدا، ليتمكنوا هم من السيطرة عليه من لحظة ميلاده حتى وفاته، كسياسة درج عليه الخلف بعد السلف من لدن الرسي إلى عبد الملك الحوثي اليوم.

وتأمل، منذ ثورة السادس والعشرين من سبتمبر 62م بقي الجهلُ قائما في أماكن سيطرتهم حتى اليوم. بقيت بعضُ المناطق إقطاعية خاصة بهم، محرومة من التعليم والثقافة، ليسهل لهم تشكيل الجيل كيفما أرادوا بتعليم أبناء العامة من الناس، من

القبائل ملازم «امسيد» المحشوة بالخرافات والأساطير، فيما أبناؤهم يعلمونهم التعليم النظامي، ثم يرسلونهم إلى أرقى الجامعات الأوروبية والأمريكية! لأبنائهم الجامعات الأوروبية، ولأبناء القبائل ملازم "امسيد"!

تنشئة خاطئة، العنف المقدس

يُنشِّئُ هذا الكيانُ أفرادَه صغارًا على التماهي أولا والذوبان داخل الجماعة/ العرق منذ طفولتهم على مفاهيم عصبوية، تحملُ في بذورها نفيَ الآخر وغمطه وازدراءه، بالقول: أنت "سيد" وأنت "أفضل" من غيرك. وأنت من سلالة أرقى، إلى آخر هذه المصطلحات العنصرية التي تكبر داخلَ عقل الطفل، وتتضخم مع مرور الأيام، حتى تصبح عقيدة راسخة في وجدانه. وفي مرحلة اليفاعة فالشباب يغرس المربي في ذهنه مزعوم مظلمة تاريخية، وحق مستلب منذ قرون غبرت ومضت، فتكبر معتقداتهم بالمطالبة بحقهم مع كبرهم هم، ومن ثم يصبح كل عنصرٍ في هذا الكيان مشروع ثائر؛ بل مشروع قاتل أو مقتول، كما أسلفنا؛ لأنه يعتقد أن له حقًا اكتسبه من السماء، فاغتصبه المجتمع منه؛ ولأنه يعتقد أولا وأخيرا وهو الأهم أنه مشروع إمام أو خليفة أو ملك، بناءً على مزعوم هذا الحق الواهم؛ فهو حاقد على المجتمع من حوله، يعيش عقدة الصراع والتفاعل الداخلي، لذا فحين ينتقم يكون مسرفا في وحشيته، بقدر إسراف عواطفه ومعتقداته.

ويزداد توحش هذا الكيان في المجتمعات المنغلقة على نفسها والبدائية، والتي لا تنتشر فيها نوافذ الثقافة أو أضواء المعرفة، كما هو الشّأن في جبال شمال اليمن الحصينة التي ظلت مغلقة على نفسها فترة طويلة من الزمن، فباض فيها الكيان الإمامي وفرّخ، وامتلك حاضنة اجتماعية بسبب الجهل أو التجهيل الذي فُرض على كثيرٍ من شباب هذه المناطق. وهي أساسا لم تنشأ إلا في جبال الجيل والديلم، «عراق العجم»، وجبال المغرب المغربي أولا، وجبال الرس النائية في المدينة، وجبال اليمن، بعيدا عن المدن. ومن هنا اكتسبت تلك الصلابة والشراسة والانغلاق على الذات.

إن كل عنصر من هذه الجماعة هو منحرفٌ نفسيا، وغير سوي، وفي أمس الحاجة إلى تأهيل نفسي، يعيد له توازنه النفسي السيكولوجي، ليكون عنصرا طبعيا في المجتمع. يقول يحيى الرسي:

أرى حقَّنا مُسْتودعًا عند غيرِنا   ولا بدَّ يومًا أن تُرد الودائعُ

هكذا يقرر، وهكذا يعتقد أتباعه، وإلا ما الذي يضطر شيخا طاعنًا في السن، في الثمانينيات أو التسعينيات من عمره لحمل السلاح الناري، والتحريض على القتل والعنف والعدوان؟!

إنّ العنفَ الذي تمارسه هذه الجماعة في الميدان قد اعتمل في عقلهم الفردي والجمعي، وترسخ أولا في أذهانهم حتى صار عقيدة، ومن ثم انتقل إلى الواقع العملي.

إنها ذاتُ النفسية والعقلية أيضا التي جعلت من عالم كبير وأديب متعمق هو الأديب أحمد بن محمد الشامي، وفي القرن العشرين أن ينحو ذات المنحى، فيعلن هو من جهته في ملحمته الشهيرة: «دامغة الدوامغ» ما أسماه في عنوان جانبي: «يمين الثأر» قائلا:

ستسلو، قلت: لا أسلو ديـاري	**ستنسى، قلت: لن أنسى القطينا**
عدمتُ الدمع إن لم أنتزفـــه	**دما بعد اللواتي والذينـــــــــا**
وظلت تأكل الحسراتُ قلبي	**إذا لم أرْع حقهم المصونــــــا**
ولا أبقتْ لي الأيامُ خــــــلاً	**إذا سالمتُ خصمَهم الخؤونـــا**
سأطلبُ ثأرهم حتى أراهـــا	**بلاقع أو نعود محكمينـــــــا**
ونشفي غلة، ونميت ضغنـــا	**ونستقضي المغارم والديونـــا**

***

سيعلم كل ختالٍ أثيـــــم	**بأنا رغم كل العالمينـــــــا**
سنجعل من حصونهم قبورًا	**ونبني من قبورهم حُصونـا**

وما يجري اليوم هو تنفيذٌ عملي لهذه الوصية الإرهابية: فها هي بلاد الحصون والقصور اليمانية قد أضحت قبورًا لليمنيين، وها هي المقابر تملأ المدن والقرى، وقد حصدتهم آلة القتل الإرهابية الحوثية.

لكي نفهم حقيقة الكهانة الإمامية

خلال منتصف القرن العشرين قامت أكثر من ثورة في المنطقة العربية ضد الأنظمة الملكية القائمة حينها، كانت تلك

الأنظمة على قدر معقول من الرقي والتقدم واحترام الشعوب، عدا ما تسمى بالملكية اليمنية «المملكة المتوكليّة» فلا علاقة لها بالممالك، أنظمة وتقاليدا، كانت مجرد خليط من الكهانة الدينية والسياسية لا أكثر.

المهم، احترمت الأنظمة الملكية في الدول العربية إرادة الجماهير الثائرة، وتطلعات الشعوب، فسلمت الحكم دون أن تتورط في الدماء أو توغل في القتل.

في ثورة يوليو المصرية 1952م، طلب الثوار من الملك فاروق مغادرة البلاد فغادرها، وتسلم تنظيم الضباط الأحرار بزعامة محمد نجيب وجمال عبدالناصر الحكم بكل سلاسة، ومن اليوم الثاني بدأ هؤلاء الشباب ببناء وطنهم، وصدحت أغاني الطرب، وغنت أم كلثوم وعبدالحليم حافظ.

في العراق قام تنظيم الضباط الأحرار بقيادة عبدالكريم قاسم وعبدالسلام عارف في 14 تموز/ يوليو 1958م، بثورة ضد الملك فيصل الثاني وولي عهده، ورئيس الوزراء نوري السعيد، وأعلنوا جمهوريتهم الجديدة، وأدركت بقية العائلة الحاكمة أن المستقبل للشعب، وأن دولتهم انتهت.

في ليبيا قامت ثورةُ الفاتح من سبتمبر في 1969م، ضد المملكة السنوسية، تبناها تنظيم الضباط الوحدويين الأحرار، بقيادة الضابطين الملازم معمر القذافي وصديقه الخويلد محمد الحميدي، وفي اللحظات الأولى أعلن ولي العهد استسلامه، وتسليم السلطة للتنظيم الجديد، محترمين إرادة الجماهير.

في اليمن قامت ثورة 26 سبتمبر 62م تبناها تنظيم الضباط الأحرار، بزعامة علي عبد المغني والسلال، وآخرين، والتف حولهما الشعب، ولكن.

من اليوم الثاني للثورة توحدت البيوتات الإمامية وأعادت ترتيب صفوفها من جديد، رغم الخلافات السابقة بينها، وأعلنت ثورة مضادة على الشعب من اليوم الثاني، غير آبهةٍ بإرادة الجماهير، فاستنزفت مقدرات اليمن وخيرات رجاله في حرب استمرت ثماني سنوات، لم تنته إلا بمصالحة سياسية، برعاية المملكة العربية السعودية في العام 1970م.

ليس ذلك فحسب؛ تحولت بعد ذلك داخل الصف الجمهوري طفيلياتٍ هدامة، ساعية لإعادة نفسها مرة أخرى، فعادت أسوأ عودة، في سبتمبر 2014م، بعد ما يزيد عن خمسين عاما على اندحارها، في محاولة بائسة لاستعادة مزعوم حقها الإلهي، ولا تزال، ولكن الشعب لها بالمرصاد اليوم.

إنها الكهانة الإمامية، وأيديولوجيا مزعوم الحق الإلهي العتيق، ووهم المظلومية المسيطرة على ذهنية هذه الجماعة. وهذا فقط لنعرف أن لدينا في اليمن ورمًا خبيثا، غير كل الأورام السرطانية الشائعة في المنطقة وفي العالم، يجب أن يُستأصلَ نهائيا، حفاظا على ما تبقى من مستقبل أبنائنا، وقد عفرته هذه الجماعة بركامات فكرها المظلم ودخان حربها المدنس.

المتساقطون على طريق الوطن

كيف؟ ولماذا؟!

لطالما قلتُ، وأقول: للشعوب عقائدُها الوطنية كما لها عقائدُها الدينية، وإنَ المساسَ بعقائد الأوطان لا يقل جُرمًا عن المساسِ بعقائد الأديان؛ بل لقد عرفنا أممًا في التاريخ القديم والوسيط غيّرت عقائدها بين عشيةٍ وضحاها بتغيير الملك عقيدته، خاصة عند الشُّعوب ذات الصّبغة الأبوية في ثقافتها السياسية، ومع هذا سارت دفة الحياة سليمة، أما المساس بعقيدة الأمة السياسية أو هُويتها الحضارية وموروثها التاريخي والثقافي فعادة ما يتبعه الدمار والتلاشي، ولطالما مُحيت دول؛ بل وحضارات حين مُسّت كرامتها القومية بأي صورة من الصور، وصارت خبرًا من الماضي ترويه بطونُ الكتب وتتناقله شفاه الرواة.

لكل وطنٍ شخصيتُه الخاصة به، كوحدة جمعية، مثل شخصيّة الإنسان تمامًا كوحدة فردية، وتعرُّض أي وطنٍ لأي مرضٍ من الأمراضِ السياسية أو الاجتماعية يؤول به الأمرُ إلى ما يؤول بالإنسانِ الفردِ حين يداهمُه أي مرض.

وقد أفرد ابن خلدون في مقدمته فصلا خاصا عن عوامل وأسباب سقوط الدول، مشيرًا إلى أن للدول أعمارًا طبعية كما للأشخاص أعمار محدودة، وذهب إلى أنّ عُمرَ الدولة في الغالب لا يعدو أعمار ثلاثة أجيال، وعند أفلاطون كذلك أو قريب منه.

وإلى جانب العُمر الافتراضي الطبعي للدول بمؤسساتها ومرافقها فإن ثمة عوارض ذاتية أو موضوعية قد تعتريها فتؤثر على مسيرة حياتها زيادة أو نقصانا، ثم أسهب القول بعد ذلك في تلك الأسباب التي تعجل بسقوط الدول واندثارها، ليس هنا مجال سردها.

كما أفرد الروائي والفيلسوف الإنجليزي المعاصر كولن ويلسون 26 يونيو 1931-5 ديسمبر 2013م، كتابا خاصا بهذه المسألة من بين نتاجاته الفكرية الكثيرة، أسماه «سقوط الحضارة»، ومثله فعل أيضا أريك اتش كلاين في كتابه: "1177ق. م، عام انهيار الحضارة". وقبلهما فعل ادوارد جيبون عن سقوط الإمبراطورية الرومانية، وغيرهم.

بعد هذا الاستطراد نعود للقول: قبل أن تتساقطَ الأوطان، يتساقطُ القائمون عليها، ولكل جماعة أو قوم سقوطهم الخاص بهم. وفي اليمن نستطيع القول: إن ثمة فئات وقعت في شباك المصيدة الإمامية السلالية، بسوء نية أو بحسنها، وتحولت من أدوات بناء إلى معاول هدم. وعلى طريق الوطن يتساقط هؤلاء:

1. سياسي جاهل

ليس كل سياسي هو مثقف، وهي ظاهرة قديمة/ جديدة، ولطالما كان أفلاطون ينادي بقولته المشهورة: "إمّا أن يتفلسفَ الحكام أو يحكم الفلاسفة" وفلاسفة تلك المرحلة هم مثقفوها بطبيعة الحال. نادى بذلك وقد رأى عبث أنصاف «المتعلمين»

يطالُ بنية الدولة؛ لأن إدارة الدولة تحتاج عقلا مستنيرا، كاستنارة الطبيب الماهر الذي يجيد التعامل مع حالته المرضية. وفي اليمن لطالما رأينا سياسيين كل ما تنقصهم السياسة، نظرا لجهلهم وخفة تصرفاتهم، يمارسون فوضى سياسية، لا عملا سياسية، مراهنين على العوام الأجهل منهم.

كثيرون من الساسة مارسوا هوايتهم السياسية بعقلية طفولية، وبمبدأ شمشون "عليَّ وعلى أعدائي يا رب". أو باستغاثة ابن الزبير: اقتلوني ومالكا، واقتلوا مالكا معي".

نعم، سياسيون كثر تجاوزوا «الخطوط الحمراء» بحق الوطن، فعضوا أصابع الندم، ولات حين مندم. طمعًا في مغنم أو نكاية في خصم، وفجأة وجدوا أنفسهم جميعًا في مصيدةٍ واحدة. كما وجد «أعدقاء» ثورة 48م أنفسهم تحت سيف الطاغية أحمد في لحظة واحدة. فما أكثر العِبرَ وما أقلَّ المعتبرين!

فشلَ جيلُ الرواد السياسيين سلطة ومعارضة في بناء الدولة الوطنية المعاصرة، فجنوا على الجيل الجديد الذي أصبح "عاريًا في عراء" نتيجة لسقوط الدولة، بتساقط هؤلاء السياسيين الأقزام!

تساقط هؤلاء على طريق الوطن، وأسقطوا معهم أيضا المؤسستين العسكرية والأمنية المنوط بهما حماية الوطن من الأخطار في اللحظات الفارقة.

نشيرُ إلى هؤلاء المتساقطين، في الوقت الذي نرفعُ القبعات احترامًا وتقديرًا لكل سياسيٍ ثبت على مبدئه، محافظا على البقية الباقية من تراب الوطن الغالي.

2. شيخ طامع

يغلبُ على كثير من الرموز القبلية في اليمن طابعُ الجشع المادي الكبير الذي يمارسونه على الدوام، ويبدو أنها لازمة وراثية من قديم الزمن، إذا ما جرجرنا من الذاكرة البيتين الشعريين المنسوبين لوالي الخليفة هارون الرشيد في اليمن آنذاك الطاغية «معن بن زائدة» في القرن الثاني الهجري:

إذا نحن زدنا من عطاء قبيـــلة لنُكفى أذاها زاد فينا انتقامهـــا

هي النار إن شبَّهتها وعطاؤنا لها حطب ما زاد زاد اضطرامهـــا

لقد عمدت الإمامة إلى مسخ القبيلة وتشويهها عبر تاريخها بعدة طرق، منها تجهيلهم المتعمد، وأيضا ترويضهم على الحروب والاقتتالات، كسلوك وثقافة يتنشؤون عليها، فتلاحقت أجيال تجيد الحرب أكثر من السلم، وتحمل البندقية أكثر من الكتاب أو القلم. وبين يدينا اليوم نموذج حي لظاهرة تجنيد الأطفال وخطفهم من مدارسهم بعد التغرير عليهم، ومنها إلى جبهات القتال!

وعادة ما يقوم بعملية التحشيد هذه رموز قبلية، بالترغيب تارة، وبالترهيب تارة أخرى، مقابل فتات من المال يتسلمونه من «المشرف» السُّلالي البغيض. وأكثر ألما من ذلك حين تنكرت

بعض الرموز القبلية لقيم القبيلة اليمنية الأصيلة المتمثلة في عدم الغدر أو الخيانة، حيث يُعد ذلك من العيب الأسود الذي يلحق شناه بفاعله، ومارست أفعالا شائنة في حق مجتمعاتها وأبنائها، خدمة للكيان السلالي البغيض، لنيل الحظوة والقرابة منهم، ولتحقيق بعض المطامع المادية التي يعملون على تحقيقها بأي طريقة من الطرق.

لطالما سمعنا من بعض الرموز القبلية حبهم لوطنهم، وفي لحظة من اللحظات تساقطوا في منتصف الطريق، بحثا عن مطامع زائلة، أو بسبب مماحكات قبلية بين هذه القبيلة وتلك، أو بين أبناء العموم أحيانا. ومن شروخ وتصدعات هذه الخلافات والتباينات تسللت الأفاعي والعقارب السُّلالية إلى أوساط القبيلة اليمنية، وإلى داخل الأسرة الواحدة، ففرقت شملهم وجعلت الأخوةَ أعداء! استغلت الرموز القبلية، واستغلت القبيلة لمواجهة الدولة، واستغلت الدولة لمواجهة القبيلة إذا ما تمرد على سلطتهم هذا أو ذاك. وفي نهاية المطاف وجدوا أنفسهم لا قبيلة ولا دولة؛ نظرًا لتلاعبهم بالقضايا المصيرية الكبرى.

تنشّأت القبيلة على ثقافة مغلوطة، منها عدم احترام المال العام، وعدم احترام الدولة، ومفاهيم سائدة مثل: "الحلال ما حلَّ باليد" و "شبر مع الدولة ولا ذراع مع القبيلي". وغيرها من المفاهيم الخاطئة التي لا تنتمي لقيم الدولة العصرية والمدنية المعاصرة.

نشيرُ إلى هذه الحقيقة المُرة، ولكن لا ننسى بالمقابل أن ثمة رموزًا قبلية كثيرة لها مواقف بطولية ووطنية في تصديها لمشروع الكيان الإمامي البغيض والثبات على مبادئ الجمهورية وروح 26 سبتمبر و14 أكتوبر.

3. نخبوي مكابر

للنخبة المستنيرة من أدباء ومثقفين وشعراء وأكاديميين أمراضُهم الخاصة بهم كمرض السياسيين؛ بل إن نسبة كبيرة منهم التحقت بالسياسة، وتماهت معها، وهي ظاهرة نادرة في اليمن من بين مختلف دول المنطقة، إذ تجد الأدباء والمثقفين مشتغلين بالسياسة أكثر من السياسيين أحيانا؛ ولم تعد الثقافة ذلك الكيان المستقل كهيئة اعتبارية بذاتها، حتى الدوائر الثقافية في الأحزاب السياسية تجدها تابعة للدوائر السياسية، ناهيك عما يمكن أن نسميه بـ «الكتل الوظيفية» التي تتخندق في مجاميع عنقودية مع هذا الطرف أو ذاك، وربما لصالح دول أخرى من خارج البلاد.

يتحالف بعض من نسميهم «نخبة» مع الكيان الإمامي البغيض نكاية بهذا الحزب أو ذاك، على حساب القضايا المصيرية الكبرى، وعلى حساب الوطن في صورة من صور الكيد السياسي والخلافات الشخصيّة التي تنطلقُ من أنويتها المفرطة، إلى حد أن سخّر بعضٌ من هؤلاء المثقفين أو الأدباء شعرَهم وأدبهم لمناصرة هذا الكيان الذي يحتقرُ كلَّ من عداه، وأصبح

البعضُ منهم يدافع عن العنصرية والاستعلاء صراحة، ناسيا أو متناسيا شرف الكلمة وقدسية الوطن، مع علم هؤلاء سلفا أن الكلمة تفقد قيمتها وشرفها إذا ما انحازت لأية عصبويات سُلالية أو عرقية أو حزبية على حساب الوطن، وعلى حساب القضايا الكبرى؛ بل لقد ارتد البعضُ عن 26 سبتمبر أو 14 أكتوبر، على ما في كل منهما من قيمة سياسية كبرى للوطن، شمالا وجنوبا. والواقع أنَّ كلا من 26 سبتمبر و14 أكتوبر يكادان يكونان هما الوطن حاضرًا ومستقبلا، وبدونهما فلا قيمة له.

نتكلم عن هؤلاء، ولكن لا ننسى بالمقابل أنّ ثمة أقلامًا صمدت صمود الجبال، وأن ثمة مثقفين وأدباء وأكاديميين كانوا من أوائل المناضلين الذين التحقوا بمختلفِ جبهات النضال، العسكرية والثقافية على حد سواء.

4. متدين ساذج

كغيرهم من بقية الفئات الأخرى ثمة متدينون فهموا من الدين قشورَه السطحية، متغيبون عن القضايا الكبرى في حياة الناس. ينظر هؤلاء السطحيون إلى قضايا مصيرية وطنية نظرة ثنائية قاصرة.

انطلت فكرة «الآل» على بعض المتدينين من غير السلاليين المتعصبين فجاروهم توهمًا منهم أن ذلك من الدين حقا، الأمر الذي استغله كهنة الهادوية ووظفوا هذا الاعتقاد السّاذج توظيفا سياسيًا جائرًا.

كثيرون من رجال الدين لا يرون في المسألة الوطنية أهمية كبرى في حياة الناس، ويركزون على الجانب الوعظي والترغيبي أو الترهيبي، فيما القضايا المصيرية الكبرى بعيدة عن اهتماماتهم، وبعضُهم يحيل كل كوارث البلاد ونكباتها إلى القدر الإلهي المكتوب، كقضاء لا بد منه، فيعمل على تخدير وعي الناس وتثبيط هممهم تجاه أي دورٍ إيجابي عملي، أي ما على الناس إلا التسليم بما هو كائن، دون الغوص في تفسير القضايا تفسيرا سياسيا وفقا لمحدداتها الموضوعية.

للمسجد قداسته، وللنص الديني هيبته وجلاله في نفوس الناس بلا استثناء، وعزوف بعض رجال الدين عن تناول القضايا المصيرية الكبرى في أدبياتهم الدينية قصر نظر، وفي أوقات الحروب خيانة وطنية. في قضايا كهذه يجب توظيف كل شيء في سبيل الوطن، باعتباره قيمة تنتهي عندها كلُّ القيم.

في حومة هذا الكفاح والنضال المستميت نرى بعض هؤلاء لا يزالون غارقين في اهتمامات جانبية لا تمت لجوهر الصراع بصلة، وكأن الأمر لا يعنيهم؛ علما أن ثمة آخرين على قدرٍ عالٍ من الوعي والحنكة السياسية والاستبصار، ولهم أدوار نضالية مشرفة، وبشكل عام فشأن هؤلاء شأن بقية الفئات الأخرى.

5. قطيع مندفع

يمثل عامة الناس -وخاصة الشباب منهم- حطب الوقود الأكبر في صراعات الكيان الإمامي البغيض مع الشعب، ومشكلة

المصلحين والمفكرين والفلاسفة عبر الزمن هم القطيع المنفعل والمندفع من العامة الذين يتم استغلالهم، وأغلبهم، إن لم يكن كلهم، من الجهلة والمغرر بهم، يمتلكون فائضًا من النشاط والحيوية وفائضًا في البطالة والفقر، استغل هذه الحالة «الصّنمان المقدسان» في صنعاء وما حولها: «امسيد» – كحالة كهنوتية سياسية تدمر بنية الدولة و «امشيخ» كحالة فوضوية – تعمل في موازاة الدولة أحيانا، وجعلا منهم كتلاً متحركة، مجردين من أبسط الحقوق المدنية؛ بل الطبعية. شباب مكانهم الطبعي الجامعات والمعسكرات والمصانع وأسواق العمل المختلفة في اليمن وخارج اليمن. شباب منتفشو الشعور، متسخو الثياب، تسربوا من التعليم في مراحله الأولى، والتحقوا بأسواق البطالة والتخريب، ولولا هذا القطيع لما استطاع هذا الكيان الصمود لوحده يوما واحدا.

هؤلاء الشباب «القطيع المندفع» كاللابة المتدفقة من البركان قد يحيلُ السهول القاحلة إلى مروج خضراء إذا ما تم التعامل معه بحكمة، بهندسة مجاريه وتصريف تفرعاته، وقد يحيلها بلقعا خرابا إذا أهمل بجرفه كل ما أمامه. هذا ما حصل تماما. تحولت طاقة الشباب من طاقة إبداعية خلاقة إلى طاقة سلبية جارفة. ولو كان لدينا سياسيون حكماء مستبصرون لحقائق التاريخ لاتبعوا استراتيجية الملياردير اليهودي «كوزيمو دي مديتشي» في فلورنسا 27 سبتمبر 1389 - 1 أغسطس 1464م حين عمل على تأهيل خصومه المسيحيين المتطرفين بالتعليم، وذلك للحد من تغول التطرف الكنسي الذي أفضى إلى خلق

جيل متطرف ومشبع بالكراهية من المسيحيين، ضد اليهود والمسلمين في أوروبا كلها، فغيَّر بالتعليم والفن جيل عصره تمامًا، واستمرت أسرته كذلك إلى اليوم، ويكفي أن أستاذ الفن التشكيلي الأول في أوروبا «مايكل أنجلو» كان من مقربيه، وممن دَعَمهم وشجَّعهم وتبنى مشاريعهم الفنية والثقافية. وللعلم فقد أسس «مديتشي» أولَ وأكبرَ مكتبةٍ مسيحيةٍ ثقافيةٍ في أوروبا، وجلب إليها المخطوطات من جميع أنحاء أوروبا، وحول طاقة الشباب المندفعة حينها من القتال إلى التعليم والثقافة والإبداع. وكما يُقال: ليس القائد العظيم من ينتصر في مئة معركة؛ بل القائد الذي لا يحتاج إلى معركة واحدة أصلاً حتى ينتصر، ومن الحكمةِ أن تُفشلَ قرارَ الحرب، لا أن تنتصرَ في الحرب.

هذه الجماعة «الحوثيون وأشياعهم» تمددت في الفراغ الذي كان يجب أن يملأه الساسة والعلماء والمفكرون.

كهوفُ مران نُحتت حين غابت المدارس والكليات ومعاهد الموسيقى والفنون.

البندقية حضرت حين غاب القلم.

عادت ثقافة الإمامة حين غابت ثقافة الجمهورية،

ظهر «السيد» بعد أن غاب المسؤول، وتدخلت إيران حين غابت صنعاء ودول الجوار.

لماذا العدوُّ القصيُّ اقترب؟ لأنَّ القريبَ الحبيبَ اغترب

لأنَّ الفراغَ اشتهى الامتلاء بشيءٍ فجاء سوى المرتقب

ظهرت خرافة «الحق الإلهي» في الحكمِ حين غابت ثقافة الحقوق الطبعية والحقوق المدنية والثقافة الإسلامية الصحيحة، وعادة ما يؤمن القطيعُ إيمانًا أعمى بالقضية التي لا يفهمها كما يرى إيرك هوفر في «المؤمن الصادق».

هؤلاء، وآخرون هم أبرزُ المتساقطين على طريقِ الوطن، وبتساقطهم سقط الوطن، وسقطت هيبة الشعب وكرامة الأمة، فمتى نستعيد «المسَار» الصحيح؟! ومتى نصحو من غفلتنا التي طالت كثيرًا حتى أفقنا على الكارثة التي نعيش تفاصيلها اليومَ داخلَ الوطن وخارجه؟!

عبر التاريخ، هل سلمتْ جماعة في اليمن من شرور الكيان الشرير؟

كل العصبويات المؤدلجة نافية لغيرها، رافضة لكل من عداها، وهي تستخدم الإرهاب والعنف متى ما توفرت لها القدرة على إبادة أي مخالف، وكل مخالف لأي جماعة مؤدلجة هو عدو لها كما تعتقد، حتى لو لم يكن كذلك. وفي كتابنا «سيكولوجيا النظرية الهادوية في اليمن، قراءة في البنية النفسية للنظرية» تفاصيل أوفى في هذا الجانب.

اليمن كغيرها من المجتمعات التاريخية العريقة تضم فئات وكيانات متعددة، متنوعة تارة، ومتباينة تارة أخرى، ومع ذلك التباين فإنهم جميعا متعايشون فيما بينهم، عدا الإمامة فلا تقبل بأحدٍ أبدا، وتأملوا:

الإسماعيلية قضت عليها وأعملت فيها سيفها.

المطرفية أروت التراب بدمائهم.

اليهود، شردتهم وانتهبت أموالهم.

الصوفية كفرتهم وشردتهم.

المرأة، أهانتها.

ومؤخرا واصل الأحفاد ما فعله الأجداد.

يهود آل سالم بصعدة، شردوهم.

سلفيو دماج هجروهم.

البهائيون، نفوهم.

الأحزاب السياسية، اعتقلوهم وقتلوهم وشردوهم.

الإعلاميون والمثقفون وذووا الرأي، سجنوهم.

النساء، اعتقلوهن.

وأرى أن من المناسب أن نختتم هذه الطيافة بجزء من ملحمة «المجد والألم» للأديب والمؤرخ الشاعر مطهر بن علي الإرياني، التي تعطي صورة كافية ووافية عن حقيقة هذا الكيان الشرير، مستقرئا تاريخهم منذ ورودهم وحتى اليوم في سردية أدبية ماتعة.

لقد نبذتهم الأقطار نبــذًا فتاهوا نحونا متشردينـــــا

وحلوا بيننا يومًا فقمنـــا إليهم محتفين مرحبينـــــا

فلما غرّهم حدب وعطـف كريم يحتفي باللاجئينـــا

تباكوا وادعوا حقًا مُضاعًـا وراغوا روغة المتثعلبينـــا

وأجروا من محاجرهم دموعا على الشرع المطهر يندبونا

وفي ثوب من الإسلام راحــوا   على نياتهم يتسترونـــا

وأبدوا سيرة النساك زهـدًا   ومسكنة وهم يتربصونـا

وأحيوا من لياليهم هزيعًـا   بتطويل السجود يخادعونا

أطالوا من مسابحهم ولكـن   هموا بخيوطه يتصيدونـا

وأضفوا من ملابسهم لتلقى   عليهم هيئة المتبتلينــــا

وهم يخفون أنياباً حــداداً   وأشداقا بها يتلمضونــــا

ويبتدعون للتضليل طرقــا   ويبتكرون للدجل الفنونـا

فهم للغافلين يخادعونـــا   وللمتسائلين يجادلونـــا

وللبؤساء يذكون الأمانـــي   ويبدون الأسى متحسرينـا

وللجهال يتخذون سحــــراً   وشَعْوذة بها يتقربونـــا

ومن وحل الجهالة قد أجادوا   حبالاً للمطامع ينسجونـا

فلما استمسكوا منها بحبـــل   أتاح لهم وثوب القانصينـا

أزالوا عن نواياهم ستـــارًا   ونادوا بالإمامة معلنينـــا

وصار لهم من الأنصار حزب   من الدهماء والمُسترزقينـا

بهم صالوا وجالوا واستطالوا   عتاة مفسدين مخربينـــا

وكانت فتنة عمياء عمــت   مرابعنا وأقلقت السكونـا

على أحيائنا انقضوا وحوشًا   وعبّوا في دمانا وَالِغِينـــا

وصوب حقولنا هبوا جــرادًا   لمخضر البيادر يأكلونـــا

وبين صفوفنا انسلوا خباثًـا   لئامًا للصفوف يفرقونـــا

وفي تاريخنا دأبوا كسـوسٍ   كريهٍ للمفاخر ينحرونـا

وفي آثارنا رفعوا فؤوسًـــا   وراحوا يحطمون ويهدمونـــا

وغالوا في تعصبهم وأبـدوا   لنا البغضاء والحقد الدفينا

والآن ... ؟!

هل عرفنا القيمة السياسية العظمى لثورة السادس والعشرين من سبتمبر 1962م، وقبلها القيمة الإنسانية؟! لن نكون مبالغين إذا قلنا: إنها أعدلُ ثورة إنسانية في التاريخ.

في كل ثورات المنطقة، خرج الناس فيها باحثين عن التعليم والصحة والغذاء والخدمات الاجتماعية؛ أما في اليمن فقد خرج اليمنيون باحثين عن أنفسهم أولا، وعن كينونتهم وذاتهم الإنسانية التي سلبتها إياهم الإمامة؛ لهذا يجب أن تكون لديهم أقدس المقدسات؛ لأنها تمسُّ إنسانيتهم بصورة مباشرة. وما قيمة الإنسان وقد سُلبت حريته وصودرت حقوقه وأهدرت كرامته؟! وهذا ما تفعله الإمامة في الشعب.

5

اليمن محل أطماع القوى الكبرى عبر التاريخ

للجغرافيا سيادتها الصارمة، وللمكان منطقه الخاص في التميز والفرادة. وله تأثيره المباشر وغير المباشر في صناعة الأحداث؛ بل في صناعة الشخصية نفسها. ومن قديم الزمن تكلم الدارسون عن تأثير المكان على الطباع؛ إذ يقرر أرسطو أنّ الطبيعة تترك بصماتها على السُّلوك الإنساني، وإلى هذا أيضا أشار ابنُ خلدون في مقدمته عن تأثير الهواء في ألوانِ البشر وأخلاقهم والكثير في أحوالهم. وفي العصرِ الحديث يقررُ الفيلسوف الفرنسي مونتسكيو أنّ المناخاتِ الحارة تشكلُ بيئة مناسبة للاستبداد وتقبل العبودية، على العكس من المناخاتِ الباردة التي لا تقبلُ إلا بالحرية والمساواة وقيم العدالة؛ أما نابليون بونابرت فيرى أن معرفة البيئة الجغرافية لدولة ما تُنبئنا مسبقًا بما ستكون عليه سياستها الخارجية.

للأمكنة لغتها وألوانها وتعبيراتها وفلسفتها وتأثيراتها. للأمكنة سطوتها الجبارة، وهيمنتها القاهرة، للأمكنة حكمُها وأحكامها.

المكان نصٌّ بصريٌّ مفتوحٌ، يُقرأ بأكثر من طريقة، ومن أكثر من وجهة، المكان لوحة صامتة، تقول كل شيء بلغة الصمت، إيماء وحدسا بكيفية لا تُكيف، المكان بامتداده التاريخي وهندسته الجغرافية، بتحولاته الهُويّاتية، باعتمالاته الوظيفية، المكان بمتنه الأصلي، بهامشه الثانوي، بقاعه المديد، بفضائه الرحب، المكان بما هو صورة كلية، له شخصيته المستقلة وذاته الاعتبارية.

تقع اليمنُ على بحرين، وتتحكمُ بمضيق دولي، هو من أهم المضايق البحرية، كما تربط بين قارتين: شرق أفريقيا من الغرب وآسيا التي تقع في زاويتها الجنوبية، وفيها، ومنها كانت تقع طرق التجارية العالمية البرية والبحرية، والتي تتجه إلى بقية الجزيرة العربية فالشام والعراق. وفيها ومنها كانت تأتي السلعة الاستراتيجية القديمة «اللبان والبخور» متجهة إلى أوروبا التي تشتري هذه السلعة بأسعار الذهب، لاستخدامها في العقاقير الطبية والطقوس الدينية والهدايا الملوكية؛ أما مؤخرًا فقد حلّ النفط محل هذه السلعة، كسلعة عالمية. وتمر من مضيق باب المندب نسبة كبيرة منه إلى مختلف الأسواق العالمية.

اليمن بموقعها الجغرافي هبة الطبيعية وهندسة السّماء، لكن القائمين عليها في العصر الحديث على الأقل لم يقدروا هذا المنحة أو يقدروا موقعهم. ومن ثم فقد تحولت النعمة إلى نقمة. الأمر يشبه حامل الذهب، قد تتسببُ حمولته هذه بالقضاء عليه، إن لم يستطع حماية نفسه وثروته من اللصوص. كذلك الشّأنُ مع الموقع الجغرافي المتميز فإنه عرضة للأطماعِ الكبرى التي ترنو إليه لاستغلاله على طريقتها، وفق مصالحها هي، بعيدا عن مصالح اليمنيين أنفسهم.

في التاريخ القديم، حين كانت اليمن على قدر عالٍ من القوة السياسية والاقتصادية أحسنت التعامل مع موقعها الجغرافي، فكان اليمنيون ملوك البحار، كما كانوا ملوك البر، وقد وصفهم

المؤرخ اليوناني أغاثير سيدس بأنهم ملاحون مهَرَة، ومحاربون أشداء، يبحرون في سفنٍ كبيرة للبلاد التي تنتج العطور، إلخ.

اليمن أشبه ما تكون بقارة مصغرة، ففيها التنوع القاري كاملا، مناخا وطقسا وتضاريس، وكل هذا له أثره الإيجابي الكبير؛ إذ تظلُّ سهولها وجبالها وقيعانها ووديانها على مدار العام ولادةً بمختلف الأصناف الزراعية والحيوانية التي ترفدُ أسواقها المحلية، كما تستطيع أيضًا رفد الأسواق المجاورة، ومحافظة في نفس الوقت على نسقٍ متقاربٍ من قيمة هذه الأصناف، على العكس من بعض البلدان التي تشهد غلاء سعريا لبعض منتجاتها شتاء بسبب انعدامها فيه؛ لأنَّ المناخ لا يسمح بإنتاجه.

اليمن وأطماع الخارج، صراع عبر الزمن

في عالم السياسية ما في عوالم الأشخاص من قوانين الحياة وطبيعة الصراع، إذ يبطش القوي بالضعيف غالبا، سواء في عالم الحيوانات أو عالم الإنسان. والضعيف هنا قد يكون شخصا، وقد يكون هيئة أو كيانا على شكل دولة أو إمبراطورية. وقديمًا قال المتنبي:

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يُراقَ على جوانبه الدم

ما أن يضعف أحدٌ ما حتى يطمع فيه جاره القوي، وما أن تضعف دولة أو إمبراطورية ما حتى تطمعَ فيها الدولة أو الإمبراطورية المجاورة، وهكذا هي سيرورة الحياة وصيرورتها. وهو

ما تقرره وتؤكده قوانين الجدل الهيجلي الثلاثة، والتي تبناها ماركس وإنجلز.

واليمنُ جزءٌ من هذا القانون الكوني، توسعت حيث استطاعت أن تتوسع في تاريخها القديم، شرقا وغربا، شمالا وجنوبًا. فقد وصل المعينيون إلى اليونان عبر البحر؛ كما وصلوا إلى مدن وشواطئ أخرى خارج دولتهم؛ حيث وجدت نصوص المسند هناك في جزيرة «ديلوس» من جزر اليونان، وهي نصوص تُرينا وصول المعينيين إلى هذه الجزيرة وإقامتهم فيها، واتجارهم مع اليونان، كما يرى ذلك المؤرخ جواد علي. 263.

وفي مرحلة الضعف انكمشت على نفسها حتى فقدت القدرة على حماية نفسها أحيانا أمام الطامعين الجدد، كما سنرى.

الأطماع الدولية في التاريخ القديم والوسيط

الأطماع اليونانية في اليمن

الصّراعُ الدولي في اليمن قديم قدم التاريخ نفسه، ولعلَّ أولَ صراعٍ دولي بشأن اليمن في عهد الإسكندر المقدوني «الإسكندر الأكبر» بعد أن سمع عن الرفاه الاجتماعي والحياة الهنيئة التي يعيشُها شعبُ جنوب الجزيرة العربية؛ فأرسل بعثة استطلاعية في عشرينيات القرن الرابع قبل الميلاد، طافت حول الجزيرة العربية والبحر الأحمر، ليقرر الإسكندر بعد ذلك قراره، لكن الأجل وافاه وهو شاب في الثلاثينيات، بصورةٍ مفاجئة قبل أن يصل إليها، ومن ثم فشل المشروع. وكان ينوي السيطرة على جنوب الجزيرة العربية، ليسيطر على طرق التجارة العالمية، وعلى الهند أيضا، ليضم الشرق إلى مملكته، ويسيطر على المحيط الهندي وتجارة آسيا وأفريقيا معا. ولا شك أن تركيزه على محاولة الوصول إلى جنوب الجزيرة العربية عن طريق البحر ناتجة عن علمه بطبيعة الصحراء القاسية التي يصعب على جيوشه تجاوزها بسهولة، ثم إن الصحراء بحد ذاتها ليست مطمعًا له، بقدر ما كان يفكر في الموانئ والأسواق الرئيسة القريبة منها.

فقد وضع خطة السيطرة على المياه الدافئة بالسيطرة على سواحل جزيرة العرب، وذلك بالاستيلاء عليها، ويكون بذلك ملك أكبر إمبراطورية عُرفت حتى ذلك اليوم، تمتد من الهند إلى مصر وما وراء مصر من أرضين. وقد كلف قُوّادَه بالالتفاف

حول جزيرة العرب، وباشروا بتنفيذ الأمر بالفعل، وقد رأينا قائده نيرخوس على رأس أسطول ضخم، لعله أعظم أسطول شاهده الخليج والبحر العربي حتى ذلك العهد.[1]

ولحماية السفن والتجارة أنشأ الرومان واليونان قوة بحرية حربية، تولت حراسة السفن التجارية وحماية المستعمرات التي أقاموها على سواحل هذه الطرق المائية العالمية المهمة. ولم تكن المسافات بين المستعمرات الساحلية قصيرة، ليكون في الإمكان الدفاع عنها والتعاون فيما بينها. وللتغلب على هذا الضعف ولحمايتها حماية قوية زودوها بما تحتاج إليه من مياه عذبة، ومن أطعمة ومن جنود، لصد غارات المعتدين، وبذلك هيمنوا على البحار، وضبطوا البحر الأحمر بصورة خاصة، ولم يبق للعرب من مجال في التجارة العالمية إلا بسلوك الطرق البرية الموصلة إلى بلاد الشام والعراق.[2]

الأطماع البطلمية في اليمن

كان بطليموس الأول (367 ق.م 283 ق.م) قد رافق الإسكندر الأكبر في بعض حملاته العسكرية إلى بلاد الشرق، كما رافق بعض قادته العسكريين أيضا، وعرف خططهم وأهدافهم العسكرية والاقتصادية، ومنها أطماعهم الاقتصادية باتجاه اليمن، لكن اليمنيين في هذه الفترة، فما بعدها كانوا قد

---

1 المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، سابق، 267.

2 نفسه، 277.

استعادوا قوتهم، ومن ثَم لم تفلح الحملات التي توجهت للسيطرة البطلمية على اليمن، سواء في عهد هذا الإمبراطور أو في عهد مَن بعده من الحكام البطالمة، كما كان الأمر عليه سابقا، على الرغم من أطماعهم الكبيرة باليمن، وسعيهم للسيطرة عليه.

الأطماع الرومانية في اليمن

في العام 24 قبل الميلاد، أي في عهد الإمبراطور «أغسطس» كانت الحملة الرومانية المعروفة، نحو اليمن للاستيلاء على طرق التجارة الدولية؛ نظرا لما يسمعه عن هذه البلاد من حكايات تشبه الأساطير، فوجه حاكمه على مصر «يوليوس جاليوس» بالاستيلاء على طرق التجارة الدولية في جنوب الجزيرة العربية، وتجهزت حملة عسكرية كبيرة، عبرت البحر الأحمر باتجاه الشرق، حتى وصلوا الجزيرة العربية، ومن ثم توجهوا جنوبا باتجاه «أرض سبأ»، لكن الحملة باءت بالفشل حين كانت الصحارى بسمومها وتعاريجها أقوى من احتمالاتهم وجَلَدهم، ولم يصلوا على أبواب مارب إلا وقد أنهكهم السفر والتعب، فهُزموا في أول مواجهة، وعادوا فارين بجلودهم دون تحقيق أي نصر يُذكر. والحقيقة أن هذه الحملة التي فشلت في السيطرة على الطرق البرية لم تفشل في السيطرة على الطرق البحرية، إذ تركز اهتمامهم بعد هذه الفترة على السيطرة على البحار، للوصول إلى الهند، وجلب البضائع الهندية إلى الأسواق الأوروبية

مباشرة دون منافسة تجار المملكة الحميرية في الجنوب، أو الأنباط في الشمال.[1]

ومع مطلع القرن السادس الميلادي كانت اليمن تمر بحالة ضعف شديد، وكان الصراع الفارسي البيزنطي قد بلغ أوجه، خاصة بعد أن أصبحت القسطنطينية هي عاصمة الإمبراطورية الرومانية بدلا من روما، وفيها كنيستها الشرقية التي يدين بها الملايين من المسيحيين العرب وغير العرب، فكان لا بدّ من التنافس الحميم بين الإمبراطوريتين الكبيرتين آنذاك، وتقاسم بلاد العرب وما جاورها من البلدان للسيطرة على طرق التجارة، وعلى البحار، وأيضا على بلاد الهند، فكانت الإمبراطورية الرومانية أكثر حظا من فارس في السيطرة على طرق التجارة، ليس بالاحتلال العسكري المباشر، ولكن بعد أن وطدت علاقتها مع الحبشة التي اعتنقت الديانة المسيحية، ودعمتها بما يكفي لمحاولة السيطرة على شعب جنوب الجزيرة العربية العَصِي على الاحتلال، والممانع للغزو، وقبل ذلك بمحاولة تنصير هذا الشعب وتأسيس العديد من الكنائس على نفقتها، طمعًا في توحيد العقيدة الدينية لكل من الحبشة وجنوب الجزيرة، مع عقيدة القسطنطينية، وهي عقيدة المسيح.

وظل الأمر على هذه الحال، كما بقيت العلاقة بين الطرفين بين مد وجزر حتى كان العام 525م فكانت الحملة العسكرية

1 البحر الأحمر والجزر اليمنية تاريخ وقضية، د. سيد مصطفى سالم، مؤسسة الميثاق للطباعة والنشر، ط:1، 2006م، 12.

الكبيرة على اليمن بقيادة «أرياط» ومعه أبرهة، في عهد سميفع أشوع ذي الكلاع الذي خلف «ذا نواس»، صاحب المحرقة، ونزلت على السواحل لتبدأ أولى معاركها العسكرية مع اليمنيين الذين كانوا قد بدؤوا بالتفرق والشتات، ولم يستطع الملك الحميري مقاومتهم أو التصدي لهم؛ مواصلين السيطرة ابتداء من الساحل الجنوبي الغربي، فبلاد ظفار، ثم صنعاء ومأرب التي دخلوها من الغرب بعد أن عجز أجدادهم قبل ما يزيد عن أربعمئة عام من دخولها من جهة الشمال أو الشرق، وانكسروا على أطرافها.

وتذكر بعض المصادر أن الملك اليمني سميفع أشوع ذو الكلاع الذي أعقب "ذا نواس" قد اعتنق المسيحية بعد الغزو الحبشي، وتحسنت علاقته مع ملك الروم «جستنيان» الذي أوفد إليه وفدا في العام 529م برئاسة البطريرك يوليانوس؛ لكن هذه العلاقة لم تدم طويلا فقد ساءت بينهما في العام 532م حين قرر الملك الحميري فرض ضرائب ورسوم على السفن الرومانية التي تمر من البحر الأحمر، فرفضت السفن الرومانية ذلك، وتم قطع الطريق عليها، الأمر الذي جعل جستينان ملك الروم يوجه ملك الحبشة بغزو اليمن، والسيطرة عليها نهائيا سنة 533م، ولم يملك الملك سميفع إلا أن يغرق مع فرسه في البحر كما فعل

سلفه ذو نواس من قبله في أولى المعارك الساحلية التي تمت بين الطرفين.[1]

وقد تولى زعامة حمير بعده الملك أبو النعمان معدي كرب يعفر، والد سيف بن ذي يزن، الذي ذكرته النقوش بملك المشرق «ملك مشرقن» ووفقا لنشوان الحميري فقد حاول النعمان بن عفير، أبو سيف مواجهة الأحباش في العاصمة ظفار، وتحديدا في السحول من إب؛ لكنه لم يفلح وهزمه الأحباش في حقل شرعة.[2]

وتوالت السنون حتى العام 568م وفيها تولى الحكم في القسطنطينية جستنيان الثاني الذي دخل في حرب مباشرة مع الفرس في نفس السنة، وهنا رأى الملك اليمني معدي كرب يعفر أن يهتبل الفرصة، للتخلص من الأحباش في اليمن، بالاستعانة بالفرس المناوئين للروم، فسار إليه إلى المدائن، عاصمة الإمبراطورية الفارسية آنذاك، فوعده الملك كسرى أنوشروان بذلك، ولكن في السنة التالية؛ لأنه مشغول بحربه مع الروم على حدوده. وما أن حل العام 570م حتى حاول أبرهة احتلال مكة والسيطرة على الكعبة، الرمز الديني الأكبر للعرب يومها، والقبلة الجامعة لهم من قبل البعثة المحمدية، فهلك وجيشه،

---

1 انظر: الجديد في تاريخ دولة وحضارة سبأ وحمير، محمد حسين الفرح، وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء، 2004م، 2/1091.

2 انظر: ملوك حمير وأقيال اليمن، قصيدة نشوان بن سعيد الحميري، تحقيق: علي بن إسماعيل المؤيد، إسماعيل بن أحمد الجرافي، دار العودة، بيروت، ط:2، 1978م، 149. والنعمان أو أبو النعمان والد سيف يذكره المؤرخون بأكثر من اسم.

وورث الحكم عنه ابنه مسروق بن أبرهة، وصادف أن مات أيضا في نفس السنة الملك الحميري معدي كرب في قصره بشبوة الذي ورّث الزعامة الحميرية أيضا لولده سيف الذي ذهب إلى ملك الفرس، للاستعانة به في التخلص من الأحباش.

ويذكر المؤرخ الفرح بأن الدعم الذي أراده سيف بن ذي يزن كان معنويا أكثر منه ماديا؛ لأن له من الأتباع مئة ألف مقاتل من فرسان اليمن في انتظاره "...ولذلك لم يطلب سيف سوى ألف جندي فارسي، لإظهار التأييد الفارسي؛ أما الحرب فهي مسؤولية الجيش اليمني، ومما يؤكد محدودية ورمزية الدعم الفارسي ما تذكره جميع المصادر التاريخية من أنه استشار كسرى مرازبته والمرازبة: جمع مرزبان وهم وزراء ملك الفرس وقال لهم: ما ترون في أمر هذا العربي، ملك سمران، وقد وعدته بالنصرة؟ فقالوا له: في سجونك قوم، ثمانمئة رجل، استوجبوا القتل لتمردهم، فانظر رجلا من أساورتك، فقوِّده عليهم، وجهزهم بالسلام، فإن ظفروا كانوا باسمك، وإن هلكوا فهو الذي أردت بهم. فأخبر كسرى سيفا بذلك الرأي، وأنه سيجهز أولئك الأسرى بملابس الجنود الفرس ويهبهم له، يبقون معه باليمن، فوافق سيف على ذلك، وكان أولئك المساجين من الفرس الديلم، تمردوا على كسرى فحبسهم لذلك".[1]

---

1 الجديد في تاريخ دولة وحضارة سبأ، سابق، 2/1115. وانظر أيضا: ملوك حمير وأقيال اليمن، 150. وممن ذكر هذا العدد من المؤرخين ابن هشام، لكنه يقول: إن السفن ثماني سفن، غرقت اثنتان، وبقيت ست، ووافقه على ذلك أيضا ابن خلدون.

بعد طلب سيف بن ذي يزن من كسرى مساعدته في القضاء على الحبشة، أمر الملك بتجهيز حملة من المسجونين في سجونه، "واختار رجلا من المسجونين، يقال له: وهرز، فأمَّره عليهم، وكانوا في مَرْكَبين، فغرق أحدهما، وسلم الآخر الذي فيه سيف ووهرز، فخرجوا بساحل عدن، فلقيهم مسروق بن أبرهة الأشرم بجموع الجيش الحبشي، فاقتتلوا هنالك. ثم إن وهرز قال لهم: على أي شيء ملكهم يقاتل؟ قيل على فرس، فسكت. ثم قال لهم: على أي شيء ملكهم؟ فقالوا: على بغل. فقال: على ابن الحمار. انتقل من العز إلى الذل، لقد ذل فذل ملكه. ثم دعا بقوس وكنانة، واستخرج عصابة فعصب بها حواجبه، وأوتر قوسه، ولم يكن يوترها غيره، ثم استخرج سهما من كنانته، وقال: أروني ملكهم، فقالوا: صاحب الدرة الحمراء التي بين عينيه، فرماه وهرز، ففلق الياقوتة، وتغلغل السهم في دماغه، فسقط وانهزمت الحبشة".[1]

وبانهزام الحبشة في اليمن توافدت القبائل العربية تهئ سيف بن ذي يزن، ومن هؤلاء كبار قريش وأبرزهم عبد المطلب بن هاشم. قال نشوان: وسيف هذا هو الذي وفد عليه عبدُالمطلب بن هاشم بن عبد مناف، جد رسول الله صلى الله عليه وسلم في وجوه من قريش، ووجوه من قبائل العرب يهنئونه بالظفر على العبيد الحبشة، وما أيده الله به، فاستأذنوا بالدخول عليه، فأذن

1 ملوك حمير، سابق، 151.

لهم سيف بن ذي يزن، واسمه ذو يزن، فدخلوا إليه، وعن يمينه ويساره المقاول وأبناء المقاول، وهو ينفح بالمسك والعنبر، إلخ.[1]

ويأتي هذا الاحتفاء بالنصر من قبل سادات قريش وكبار رجالات الجزيرة العربية نظرا لأهمية اليمن وموقعها الاستراتيجي في حماية مصالح قريش التجارية، وأيضا القبائل العربية، ولأهمية أمن البحر الأحمر الذي هو موضع اهتمام الجميع. فقد كانت السيطرة في هذه الفترة للأحباش وتجارتهم على حساب التجار العرب. وفي هذا الصدد يذكر المؤرخ جواد علي أن السفن الحبشية تولت نقل حاصلات الحبشة والسواحل الأفريقية إلى بلاد العرب، وكان التجار العرب ينقلون هذه السلع إلى بلاد الشام أو العراق.[2]

ويضيف: وإني أرى أن حملة أبرهة على مكة لم تكن حملة غايتها هدم الكعبة ونقض قواعدها، كما يذكر ذلك أهل الأخبار، وإنما كانت لدوافع اقتصادية وسياسية، فقد كانت مكة قد برزت وظهرت إلى الوجود قبل أبرهة، واستغل أهلها مواهبهم وذكاءهم في كيفية جمع المال حتى صاروا تجارا ووسطاء في التجارة، يتاجرون بين بلاد الشام واليمن، وبين الحبش والعراق، وصاروا أصحاب مال، لهم نقود: دنانير ودراهم وذهب وفضة، وغير ذلك مما يسيل له لعاب التاجر وصاحب المال. أضف إلى ذلك وقوع مكة في موقع مهم، والاستيلاء عليه يمهد للسير نحو بلاد الشام، للاتصال

---

1 انظر: ملوك حمير وأقيال اليمن، 152 فما بعدها، وكان عبدالمطلب ممن تكلم بين يدي الملك سيف بخطبة طويلة، وحياه تحية الملوك "أبيت اللعن"، كما أن الملك سيف بن ذي يزن أكرم وفادتهم وخلع عليهم العطايا السنية والهدايا الجزيلة.

2 المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، سابق، 282.

بالروم، أصحاب مشروع الحملة الأصليين، فالعوامل إذن اقتصادية سياسية، وليست العوامل التي ذكرها أهل الأخبار.[1]

ولا شك أن العامل الاقتصادي كان من أهم الدوافع التي أدت إلى غزو الأحباش لليمن، فقد هدف الأحباش من وراء غزوهم إلى فتح أبواب هذه المنطقة أمام التجارة الحبشية والسيطرة على تجارة اليمن، ونقلها إلى أيديهم. ومن جهة ثانية فإن الأحباش قد رغبوا في السيطرة على الأراضي الخصبة والغنية بالمحاصيل الزراعية. وقد وقفت بيزنطة تؤيد الحبشة في غزوها لليمن، آملة من وراء ذلك إعادة التجارة البيزنطية إلى منطقة نجران، وسيطرتها على تجارة المحيط الهندي، ومن ثم إغلاق الأسواق اليمنية في وجه التجارة الفارسية.[2]

وقد اقتصر حكم الفرس في اليمن على بعض المدن فقط، مثل صنعاء وعدن والمراكز المهمة، وكان الغرض من تواجدهم هو جباية الرسوم، وذلك بالسيطرة على مخارج التجارة البرية والبحرية عن طريق البحر الأحمر والمحيط الهندي، وعن طريق البر المؤدي إلى الخليج والعراق من ناحية، والشام ومصر من ناحية أخرى، إلى جانب ما كانوا يسيطرون عليه من تجارة الخليج.[3]

---

1 نفسه، 283.

2 د. فاروق عثمان أباظة، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، العدد السادس عشر، 1978م، 79.

3 انظر: تاريخ اليمن في الإسلام، د. عبدالرحمن عبدالواحد الشجاع، ط:8، 2013م، 24.

الأطماع الدولية تجاه اليمن في التاريخ الحديث والمعاصر

مع بداية التاريخ الحديث والمعاصر استجد صراع جديد، يشاكلُ ماضيه من بعض الوجوه كما يخالفه من وجوه أخرى. فمن بين وجوه الشبه أنه الصراع الغربي/ الشرقي، القائم على أساس اقتصادي سياسي كما كان عليه سابقا إبان تصارع الإمبراطوريتين الرومانية والفارسية، صراع على النفوذ والربح والسيطرة؛ ومن بين وجوه الاختلاف أن الطامعين الجدد متعددون أكثر، ابتداء بالبرتغاليين، فالبريطانيين، فالفرنسيين، وصولا إلى الأطماع المتعددة الحالية.

الأطماع البرتغالية في اليمن

ذكرنا سابقا أن البحر الأحمر من أهم بحور العالم، إن لم يكن أهمها جميعا بالنسبة للملاحة البحرية التي ارتبطت بها التجارة العالمية قديما وحديثا، ولذا كان محط أنظار كل القوى العالمية التي تعملقت وصارت لها مصالحها التجارية خارج حدودها، كما هو الشأن مع الروم أو الفرس سابقا، وكما هو الشأن أيضا مع البرتغاليين الذين أسسوا مراكز تجارية خلال القرن السادس عشر الميلادي في الهند، وأرادوا حمياتها من خلال السيطرة على البحر الأحمر.

أطلت الأطماع البرتغالية بقرونها نحو اليمن في القرن الخامس عشر الميلادي؛ إذ كان الأمير هنري الملاح قد وصل إلى غرب أفريقيا في رحلة استكشافية عام 1415م، ووصل «بيرو دي كوفلهام» إلى البحر الأحمر عن طريق مصر عام 1487م، ومنها اتجه إلى عدن، ثم إلى الهند ثم شرق أفريقيا، جامعا لكل المعلومات المتصلة بالبيئة البحرية والشواطئية وحالة الطقس وحركة التجارة من أجل السيطرة عليها بصورة نهائية. ومثلت هذه الرحلات مقدمات تمهيدية لرحلات فاسكو دي جاما عام 1497م حول رأس الرجاء الصالح، مارًا بشرق أفريقيا فالهند، وتبعتها رحلة أخرى، مطلع القرن السادس عشر الميلادي، وتحديدا عام 1503م.

وخلال عشر سنوات من الاستكشافات والدراسات الجغرافية، ومعرفتهم بخارطة البحر الأحمر جمعوا معلومات مهولة عنه وعن الهند وشرق أفريقيا وميناء عدن وكذا مصر، الأمر الذي أفضى إلى استخدامهم القوة العسكرية بعد ذلك للسيطرة عليه، مستغلين تفوقهم العسكري الذي لم تكن تمتلكه لا الهند ولا اليمن ولا مماليك مصر أيضا حينها؛ بل لقد عملوا على تحويل طريق التجارة الدولي الذي يمر باليمن إلى رأس الرجاء الصالح الذي اكتشفه فاسكو دي جاما، وهو ما أثر سلبا على اليمن؛ إذ تراجعت وارداتها، وتراجعت ضرائب الدخل من الرسوم الجمركية على البضائع الهندية، وشُلت حركة التجارة بشكل عام، الأمر الذي أفضى إلى ضعف الدولة

اليمنية، ممثلة بالطاهريين الذين كانوا مسيطرين على البحر حينها.[1]

وبطبيعةِ الحال كان لا بدّ للدولة الطاهرية بزعامة السلطان عامر بن عبد الوهاب الطاهري آخر سلاطين دولة آل طاهر برداع أن تقاوم هذه السيطرة والغزو البرتغالي، لتضرر الدولة اليمنية منه، ولأن هذا اعتداء على سيادة البلاد في المقام الأول؛ لاسيما أن الإمامة الهادوية، ممثلة في آل شرف الدين تنازعها شرعيتها في ثلا وكوكبان وصعدة وما حولها، وزادت تلك المنازعة بعد الغزو البرتغالي، استغلالا لانشغال الطاهريين بهم، وكان الأولى أن ينضموا إلى الطاهريين لمواجهة الغزو الأجنبي «المسيحي» لكن لؤم هؤلاء الأئمة قد أنساهم الواجب الوطني في طريق الاستحواذ على السلطة بأية طريقة كانت!

ورغم الفارق المهول في الإمكانات العسكرية والحربية، بين ما تملكه الدولة اليمنية بزعامة عامر بن عبد الوهاب الطاهري من جهة، وبين الإمكانات العسكرية والحربية للبرتغاليين، ناهيك عن الانهيار الاقتصادي الطارئ والمتسارع، لكن الطاهريين قد اختاروا المواجهة مهما كلفت من ثمن، كواجب وطني تجاه المعتدي المحتل؛ فجهزوا حملة قوامها ستمئة يمني، ومعهم بعض الفقهاء وطلبة العلم المتطوعين على متن أربع عشرة سفينة في 11 مارس 1507م كانت هذه الحملة أشبه

1 انظر: عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر، د. فاروق عثمان أباظة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1987م، 34.

باللقمة السائغة والفريسة السهلة بيد البرتغاليين المتقدمين كثيرا بترسانة عسكرية وحربية لم تكن قد سمعت بها اليمن يومها، وهو ما أفضى إلى العجز الكلي عن حماية السواحل اليمنية التي ظلت عرضة للهجوم البرتغالي بين الحين والحين.[1]

وقد أفضى الأمر بين الطاهريين باليمن والمماليك المصريين إلى إقامة حلف مشترك بينهما بعد أن طلب عامر بن عبد الوهاب منهم التدخل، وذلك لحماية الموانئ اليمنية والسواحل المشتركة بين المماليك واليمنيين ضد الهجمات المتكررة من قبل البرتغاليين، وذلك في العام 1513م، فكان التدخل الذي أفضى إلى الخلاف بينهما لاحقا؛ بل الحرب في جزيرة كمران وفي الحديدة بين المماليك المصريين واليمنيين بعد طلب ذلك من قبل الإمام شرف الدين الذي طالما كان يسعى للقضاء على خصمه عامر بن عبد الوهاب عن طريق المماليك، وذلك لغرض السيطرة النهائية على كل اليمن، وبأي طريقة كانت، واستقدمهم أيضا إلى صنعاء، وحين انتهت الدولة الطاهرية بمقتل عامر بن عبد الوهاب اختلف المماليك مع الإمام شرف الدين، وحاصروه في صنعاء سنة 1517م، وصادف ذلك نفس الرغبة لدى أشراف جيزان الذين كانوا على خلاف مع الطاهريين، فكانت الغلبة بالنهاية للمماليك الذين احتلوا الشاطئ

---

1 نفسه، 38. ما تجدر الإشارة إليه هنا أن السبب الرئيس لانتصار البرتغاليين على الطاهريين هو تفوقهم في نوعية السلاح، ففي هذه المرحلة كان السلاح الناري "البندقية" قد صنعت لأول مرة في الغرب، وكانت سلاح البرتغاليين، في الوقت الذي كان سلاح اليمنيين تقليديا ولم يكونوا يملكون البندقية بعد آنذاك.

التهامي وعينوا حاكمًا من قبلهم عليه «برسباي» سنة 1516م. ومن عجيب أمرهم أنهم ظلوا بين فكي كماشة، فلا الطاهريون راضين عنهم من الشرق، ولا البرتغاليون على الضفة المقابلة كذلك. فحاربوا على جبهتين؛ بل لقد كانت الجبهة الثالثة كما رأينا مع الإمام شرف الدين نفسه التي انتهت بخبر سقوط دولتهم في مصر على يد العثمانيين، وحينها عاود البرتغاليون نشاطهم من جديد، متحالفين مع الأحباش ضد العرب والمسلمين، لا من أجل السيطرة على ميناء عدن فحسب؛ بل وكذلك على ميناء جدة، في طريقهم إلى السيطرة على مكة المكرمة، لكن غضب الطبيعة ممثلا في الرياح الموسمية قد مثّل لهم عائقا من الوصول إلى ميناء جدة، كما مثلت «طير الأبابيل» العائق أمام جيش أبرهة، فعادوا إلى عدن، وفيها مكثوا وربضت فيها سفائنهم ومعداتهم الحربية.[1]

الأطماع العثمانية في اليمن

كغيرهم من ذوي المصالح الكبرى والإمبراطوريات التوسعية، لم يستسغ العثمانيون تواجد البرتغاليين في جنوب الجزيرة العربية، مسيطرة على مداخلها البحرية الاستراتيجية، خاصة وقد تحالف البرتغاليون مع إيران الصفوية يومها، ضد العرب والمسلمين، وكان العثمانيون يرون أنفسهم أمام مسؤولية كبرى تجاه البلدان الإسلامية، كون العثمانيين إمبراطورية إسلامية،

1 نفسه، 46.

تعنى بشؤون الإسلام والمسلمين وحماية أراضيهم ومقدساتهم. وزاد شعورهم هذا أكثر حين كان البرتغاليون يعمدون إلى التنصير في البلدان التي يسيطرون عليها. ثم إن من يسيطر على مضيق باب المندب والبحرين: العربي والأحمر فقد تحكم بطريق التجارة العالمية، وهو امتياز كبير لدولة الخلافة العثمانية، كما أنه ضرورة في نفس الوقت، فالمصالح العثمانية القائمة مهددة من قبل البرتغاليين.

ووصلت قوات عثمانية بحرية هائلة إلى عدن في أغسطس 1538م، لطرد القوات البرتغالية من الهند وسواحل عدن والبحر الأحمر، بقيادة سليمان باشا، فقتلت حاكم عدن عامر بن داود الطاهري غدرا بعد أن استقبلهم وفتح لهم الأبواب، وسيطرت على عدن؛ بل وعدُّوا ذلك فتحا. كما عين أحد قادة الحملة نائبا له على عدن، وتوجه إلى الهند للقضاء على البرتغاليين هناك، وبسط نفوذه عليها، لكنه فشل في ذلك، وعاد إلى عدن بحملته، مكتفيا بها وبالسواحل الجنوبية دون الهند، وبهذا يكون قد حصن باب المندب وسواحل البحر الأحمر من أي مرور للسفن البرتغالية، كما سيطر على جزيرة كمران وميناء جيزان وميناء جدة، إلخ.[1]

ولم ينقض النصف الأول من القرن السادس عشر إلا وكان العثمانيون قد طردوا البرتغاليين من البحر الأحمر، واستولوا

---

1 انظر: البرق اليماني في الفتح العثماني، قطب الدين محمد بن أحمد النهروالي المكي، إشراف: حمد الجاسر، دار اليمامة، الرياض، 1967م، 80. وأيضا عدن والسياسة البريطانية، سابق، 49 فما بعدها.

على الموانئ المهمة على شاطئيه الأفريقي والأسيوي، وهي سواكن وعقيق ومصوع ودوهونو على الساحل الأفريقي. كما استولوا على عدن، وحصنوا جدة على الساحل الأسيوي، وجعلوا من البحر الأحمر بحيرة عثمانية، أغلقوها في وجه السفن المسيحية. وفي منتصف هذا القرن أيضا عين العثمانيون حاكما تركيا على مصوع وآخر على سواكن، ووضعوا هذين الحاكمين تحت إشراف والي جدة، وهو حاكم الحجاز.[1]

الأطماع الهولندية في اليمن

برزت هولندا قوة اقتصادية كبيرة مع بداية القرن السادس عشر، فضمت البرتغال إليها، وتوسعت شرقا في البحار، بغرض السيطرة عليها وإحكام طرق التجارة، فعمدت أولا إلى تأسيس شركة الهند الشرقية الهولندية عام 1594م، وفي العام 1614م أرسلت أول أسطول لها إلى البحر الأحمر، لاستطلاع حركة التجارة في سواحله، فنزل أولا في عدن، ثم ذهب إلى الشحر، ثم إلى «مخا»[2]، ثم زار الوالي العثماني إلى صنعاء، لغرض استصدار تصريح له بتأسيس وكالة هولندية تجارية في «مخا»، لكن الوالي أوضح له أن ذلك من اختصاصات الباب العالي، وليس من

1 عدن والسياسة البريطانية، سابق، 54. وقد كان من ضمن أهداف العثمانيين أيضا الحفاظ على ما عرف بممالك الطراز الإسلامية المحيطة بالحبشة، وهي مدغشقر وبراوا وكيسمايو، وهي ممالك إسلامية مجاورة للحبشة المسيحية، لكن هذه المحاولة لم تصمد كثيرا، وقد تركوا هذه الشعوب عرضة للانتقام البرتغالي لاحقا.

2 الأصح «مخا» خلافا لما هو عليه الشائع «المخا» ومثل مخا أيضا: محويت ومهرة وحديدة، وليس المحويت والمهرة والحديدة، كما ينطقها بعضهم. كما ننطق: حجة وريمة وصعدة وأبين، إلخ.

اختصاصه هو كوالٍ، فترك الرحالة الهولندي بيتر مان اليمن وذهب إلى الهند. وقد كان تعاملُ الهولنديين مختلفًا كثيرا عن تعامل البرتغاليين الذين اتبعوا أسلوب الهمجية والإرهاب في التعامل مع الآخر.

وتجدر الإشارة إلى أنه مما خفف من حدة الضربة الاقتصادية الشديدة التي أصيبت بها اليمن، نتيجة لتحول طريق التجارة إلى رأس الرجاء الصالح انتشار زراعة البن في اليمن، واستمرار تصديره لبلدان الشرق الأوسط وأوروبا عن طريق البحر الأحمر، وطريق رأس الرجاء الصالح في وقت واحد. وقد وصلت سفارة عثمانية إلى اليمن في سنة 1712م للتفاهم مع الإمام على أساس قصر تصدير البن اليمني عن طريق البحر الأحمر، بدلا من طريق رأس الرجاء الصالح الذي أضر كثيرا بدخل السلطان العثماني، وكانت أساليب السفارة العثمانية قائمة على أسس دينية لحث الإمام على تحقيق تلك الغاية، غير أن الإمام رفض الاستجابة لمطلب العثمانيين، حفاظا على دخله الخاص.[1]

وقد استمرت التجارة الهولندية اليمنية فترة غير قصيرة، وكانت تعتمد على محصول البن اليمني حتى نقل الهولنديون

---

1 عدن والسياسة البريطانية، سابق، 60. والإمام المقصود هنا هو المهدي محمد بن المهدي أحمد، صاحب المواهب، (1098 1130هـ الموافق: 1687 1718م) وقد كانت تجارة البن هي المحصول الوحيد تقريبا الذي يصدره اليمنيون إلى الخارج، وظل فترة حتى تم نقل زراعة البن من اليمن إلى هولندا وجنوب أمريكا وجرز الهند الشرقية، وكان الاستغناء عن البن اليمني المتميز بجودته وشهرته.

زراعة هذا المحصول إلى جزر الهند الشرقية وجزر الهند الغربية في سنة 1712م على وجه التقريب. كما انتقلت زراعة البن بعد ذلك إلى أمريكا الجنوبية، مما أدى في النهاية إلى القضاء على احتكار اليمن لإنتاج ذلك المحصول المهم. وقد نتج عن ذلك قلة دخل اليمن، وتدهوره اقتصاديا، مما زاد من حدة الاضطرابات الداخلية، وقد أكد هذه الصورة كارستن نيبور، الرحالة الدانماركي الذي زار بلاد اليمن في سنة 1762م في مؤلفه المشهور الذي تُرجم إلى عدة لغات، والذي ضمنه تفاصيل أول رحلة علمية جدية، قامت بدراسة جغرافية ونباتية واجتماعية لليمن في القرن الثامن عشر، مما لفت أذهان الأوروبيين إلى أهمية اليمن التي لم تكن معروفة لديهم بالقدر الكافي حينذاك.[1]

ويقال إنّ الرحلة التي قام بها القبطان «فان دين بروك» عام 1614م كانت السبب الذي أوصل البن إلى أوروبا لأول مرة.[2]

الأطماع البريطانية في اليمن

لا توجد دولة في الغرب أو الشرق لها أطماع اقتصادية وسياسية مثل بريطانيا في بداية العصر الحديث. وكانت بريطانيا من أوائل دول أوروبا إن لم تكن أولها جميعا التي سعت لتوسيع تجارتها الخارجية، وتأسيس المستعمرات التي

---

1 نفسه، 61.

2 تاريخ البحر الأحمر من موسى حتى بونابرت، روجيه جوانت داجنت، ترجمة حسن نصر الدين، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط:1، 2013م، 362.

تضمن مصالحها؛ بل لقد كان الطابع العام للاستعمار البريطاني طابعًا اقتصاديًا خالصًا. وكانت في القرن الثامن عشر وما بعده تمتلك أكبر وأقوى أسطول بحري عالمي، ساعدها في السيطرة على البحار وعلى طرق التجارة، وعلى الحفاظ على مصالحها الاقتصادية، فتحالفت من وقت مبكر مع الإسبانيين والفرنسيين وكسرت احتكار البرتغاليين، ووصلت إلى رأس الرجاء الصالح، ومنه إلى الهند، واحتلت مضيق جبل طارق وجزيرة مالطة.[1]

وتأتي هذه السياسة في إطار تمسكها بمبدأين هامين طوال تاريخها الحديث: أولهما: محافظتها على سيادتها البحرية، وتفوق أسطولها في بحار العالم فترة طويلة من الزمن، وثانيهما: محافظتها على التوازن الدولي، بما يحفظ لها مصالحها الحيوية.[2]

ما تنبغي الإشارة إليه هنا هو تلك المحاولة الأولى للبريطانيين السيطرة على ميناء عدن لكن العثمانيين كانوا لها بالمرصاد؛ إذ اعتقلوا قائد أول سفينة بريطانية وصلت عدن، وصادروا

---

1 حين كان البرتغاليون قوة بحرية متقدمة في البحر الأحمر ساعد البريطانيون العثمانيين في مواجهتهم، لأن المصالح البريطانية تضررت من سيطرة البرتغاليين، وحين سيطر العثمانيون بعد اندحار البرتغاليين بدأت العلاقة تسوء بين الطرفين، وظل التوجس قائما بين الطرفين، حتى سمح العثمانيون للبريطانيين بمزاولة نشاطهم التجاري في ميناء المخا، وإقامة وكالة تجارية تشرف على مصالحهم هناك، وبتحديد ضرائب= =الاستيراد والتصدير بنسبة 3% فقط، تدفع نقدا أو عينا، ليتطور الأمر إلى مزاولة نشاطهم في بقية الموانئ بعد ذلك.

2 انظر: معالم التاريخ الأوربي الحديث، د. محمد محمود السروجي، مطبعة المصري، الإسكندرية، 1967م، 18.

حمولة السفينة، ثم رحلوه عبر ميناء المخا. وتكررت المحاولة الثانية عام 1610م بثلاث سفن حربية بريطانية لكن العثمانيين احتالوا عليها باستقبال قباطنتها استقبالا حسنا، ثم التفوا عليها، ووقعت مناوشات حربية لم تفلح في مصادرتها بين الجنود البريطانيين والعثمانيين، أسفرت عن رحيل البريطانيين، وتبعتها محاولة أخرى عام 1612م، ومحاولة أخرى أيضا عام 1618م، وكلها بغرض التعرف والسيطرة؛ ولذا كان البريطانيون داعمين لأئمة صنعاء المناوئين للعثمانيين، حتى يجدوا لهم نصيرا داخل اليمن، يمكن أن يسهم في تسهيل عمليات التبادل التجاري، وخاصة ما كان يتعلق منها بتجارة البن اليمني في ميناء مخا. وقد استمرت هذه العلاقات الودية لمدة قرنين من الزمان على النحو الذي يؤكده هارولد انجرامز، موضحا أن البريطانيين في عدن مدينون بالكثير لأسلافهم الذين سعوا لإيجاد علاقات طيبة مع الأئمة.[1]

هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية فإن بريطانيا تعد العثمانيين هم الخطر الأكبر عليها؛ أما الأئمة الزيدية فالحلقة الأضعف في صراعها معهم، إن وجد هذا الصراع مستقبلا، ولا يملكون من عوامل القوة غير صلابة الجغرافيا فقط؛ لأن الصراع الزيدي «الهادوي» كفيل وحده بإضعاف سلطتهم من الداخل، كما أن تسلطهم الغاشم ونظرتهم البدائية للحكم الكهنوتي ستعجل من انفصال الجنوب عن الشمال؛ كونهم

---

1 عدن والسياسة البريطانية، سابق، 68.

سلطة «ثيوقراطية»، وحكاما غرضهم التحكم لا الحكم، ولا قبول لهم هناك في أوساط الناس، وهو ما كان بعد ذلك.

في يوم 19 يناير من العام 1839م احتل الكابتن «هنس» عدن، بعد سنواتٍ طويلة من التخطيط والدراسة، وبعد التمهيد لذلك بكل الأساليب من أجل السيطرة عليها، لأهمية هذا الميناء وموقعه الاستراتيجي، ولما يمكن أن يمثله لهم من ضمانةٍ اقتصاديةٍ كبيرة للحفاظ على مصالحهم في الهند القريبة من عدن، وفي طرق التجارة الدولية المرتبطة بعدن والهند وشرق أفريقيا، خاصة وقد كانوا مسيطرين على مضيق جبل طارق الذي يمثل لهم أيضا قوة اقتصادية وسياسية كبيرة، وظلت بريطانيا مسيطرة على عدن حتى قامت ثورة 14 أكتوبر 1963م، ثم الخروج النهائي وإعلان الاستقلال في نوفمبر من العام 1967م.

الأطماع الفرنسية في اليمن

لما ازدادت شهرة ميناء «مخا» وشهرتها آنذاك من شُهرة سلعة البُن بدرجة رئيسة طمعت فرنسا كغيرها من القوى الطامعة والطامحة بأهمية المكان، وسلعه التجارية، ونافست الهولنديين والبريطانيين والعثمانيين هناك، حيث وصلت أول سفينة تجارية سنة 1709م إلى مخا، وقابلوا عامل الإمام هناك، ومن مخا انتقلوا إلى صنعاء، وقابلوا الإمام المهدي محمد بن المهدي أحمد، صاحب المواهب، واتفقوا على العمل في الميناء

اليمني نهارا، والعودة إلى سفنهم في البحر ليلا، ورفع علم بلادهم على وكالتهم التجارية، والسماح لهم بممارسة طقوسهم الدينية، وقد حددت الضرائب الجمركية ب3% على البضائع المَبيعة، مما أدى إلى زيادة الطلب على البن وارتفاع سعره.[1]

ووصل الوفد الفرنسي إلى مقام الإمام المهدي في العام 1712م، وعالجوا الإمام من أمراض كان يشكو منها، والتقوا مع الوفد العثماني في المواهب، وتتبع الفرنسيون الوفد العثماني الذي زار الإمام وهم بمقر دار الإمام، لمعرفة سر زيارته للإمام وما الذي خرج به، مع أن الوفد العثماني لم يحقق أي اتفاقٍ يُذكر مع الإمام بخصوص إقامة بعض الاتفاقيات التجارية بين اليمن والعثمانيين.[2] وحافظ الفرنسيون على علاقتهم مع اليمن على الرغم من الخلاف الذي حصل لاحقا مع عامل الإمام على «مخا»، ومحاولة الفرنسيين ضرب المخا بسفينة حربية فرنسية، لكن تمت تسوية الخلاف بين الجانبين، والتي أفضت إلى عزل الإمام عامله على مخا، ومصادرة قصره في صنعاء.[3]

1 انظر: اليمن في ظل حكم الإمام المهدي، د. محمد علي الشهاري، الجيل الجديد، ط:1، 2009م، 328.

2 نفسه، 355.

3 انظر: عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر، سابق، 72.

الصراع البريطاني الفرنسي في الموانئ والجزر اليمنية

مع مطلع القرن الثامن عشر أصبحت فرنسا قوة تجارية وسياسية في الغرب والشرق معا، الأمر الذي أقلق بريطانيا المتطلعة للسيطرة على البحر الأحمر والمحيط الهندي، التي لا تزال في توجس من هولندا المنافسة لها في ذات المكان، وإن كانت هولندا بالنسبة لبريطانيا أهون كثيرا من فرنسا، العدو اللدود لبريطانيا آنذاك والمنافس الخطير الذي يهدد مصالحها، ليس في الشرق فقط؛ بل في أنحاء أوروبا أيضا.

وتبدو نوايا فرنسا إزاء طريق البحر الأحمر واضحة بجلاء من خلال التصريحات التي أدلى بها قنصلها في مصر «ماجلون» الذي عبر عن أهمية البحر الأحمر بالنسبة لفرنسا، بقوله في 5 يونيو 1795م: إنه إذا أصبح الفرنسيون سادة للبحر الأحمر فإنهم يستطيعون أن يهددوا مصالح البريطانيين، وأن يطردوهم من الهند، فعن طريق السويس خلال الفترة المناسبة من العام يمكن إرسال عدد من القوات الفرنسية إلى الهند بواسطة عدد قليل من البواخر، ولا يحتاج الجنود الفرنسيون في هذا الطريق أن يبقوا في البحر أكثر من ستين يوما، بدلا من طريق رأس الرجاء الصالح الذي يستغرق حوالي ستة أشهر، وعن طريق السويس لن يكون الفرنسيون معرضين لخسارة أكثر من 1%

من رجالهم، بينما خسائرهم في الطريق الآخر لن تقل عن 10% بأي حال من الأحوال.[1]

وزاد الأمر تعقيدا أكثر عندما أقدم الفرنسيون على احتلال مصر في إطار التنافس بينهم وبين الإنجليز حول طرق التجارة والمواصلات. وخلال مدة الاحتلال الفرنسي 1798: 1801م قاموا بتنظيم ميناء السويس؛ حيث دخل البحر الأحمر والموانئ المطلة عليه مرحلة تاريخية جديدة؛ إذ بدأت أنظار الدول الأوروبية المتنافسة تنظر إليه على أنه طريق الوصول إلى الشرق الأقصى الغني بالثروات، ومن هنا قامت شركة الهند الشرقية الإنجليزية بنشاط واسع للسيطرة على المراكز الاستراتيجية في المدخل الجنوبي للبحر الأحمر، ثم السيطرة على جزيرة سقطرى اليمنية بعد مفاوضات مع سلطاتها.[2]

لكن لم يمض أكثر من عشرين عاما على احتلال فرنسا لمصر حتى كانت فرنسا قد خرجت من مصر بعد هزيمتها في موقعة أبي قير البحرية سنة 1798، قريبا من الإسكندرية، على يد القائد البريطاني «نلسون». وفي عام 1799م احتلت بريطانيا جزيرة «ميون» اليمنية، وهي من الجزر الاستراتيجية على مدخل البحر الأحمر، كما قامت بعد ذلك بعقد اتفاقية معاهدة بينها وبين سلطان لحج سنة 1802م تم الاتفاق بموجبها على فتح ميناء

---

1 عدن والسياسة البريطانية، سابق، 79.

2 البحر الأحمر في الحرب العالمية الأولى 1914 1918م، إبراهيم محمد حسن، عين للدراسات والبحوث الإنسانية، والاجتماعية، 1998م، 39.

عدن أمام السفن التجارية البريطانية، كما تمت معاهدة أخرى أيضا مع الإمام المهدي عبد الله بن المتوكل أحمد في صنعاء سنة 1236هـ، 1821م.

ووصل الدكتور برنجل، الطبيب البريطاني الذي عمل في بومباي، ثم صاحب «موراي» في رحلته السابقة إلى الموانئ اليمنية، وأقام في «مخا» في سنة 1800م، فقد أوصل في شهر مايو من نفس السنة عدة خطابات وهدايا من الحاكم العام للهند إلى «علي منصور»[1] إمام صنعاء، لحثه على إصدار تعليماته لحكام الموانئ اليمنية بعدم مضايقة السفن البريطانية عند قيامها بعمليات التبادل التجاري مع سواحل البحر الأحمر وتزويدها بما تحتاج إليه لمواصلة رحلاتها. وقد استقبل إمام صنعاء الدكتور «برنجل» بحفاوة وتكريم، وأصدر تعليماته لحكام الموانئ اليمنية في مخا والحديدة واللحية لتقديم كل التسهيلات والاحتياجات اللازمة للسفن البريطانية بالأسعار العادية، كما تم الاتفاق على حماية البحارة على الشاطئ والمحافظة على شحنات السفن بقدر الإمكان إذا جنحت أو تحطمت، وفضلا عن ذلك فقد وافق الإمام «علي منصور» أيضا على بناء مستشفى بحري في مخا، لاستقبال المرضى من الأسطول التجاري البريطاني. وقد غادر الدكتور برنجل صنعاء متجها إلى مخا بعد نجاحه في الحصول على كل هذه التسهيلات.[2]

1 هو الإمام المنصور علي بن المهدي عباس، 1189 1224هـ، 1775 1809م.

2 عدن والسياسة البريطانية، سابق، 84.

ولا شك أن هذا التنافس والصراع بين الفرنسيين والبريطانيين على الموانئ والسواحل اليمنية أفضى في محصلته النهائية إلى مغادرة الفرنسيين لميناء مخا عام 1762م، وقبلهم الهولنديون، وانفردت بريطانيا بالبقاء وحدها من بين الشركات الغربية.

الأطماع الإيطالية في اليمن

التواجد الإيطالي الحديث والمعاصر في البحر الأحمر امتداد للتواجد الروماني القديم الذي ذكرناه آنفًا، وهو وإن انقطع عن اليمن بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية فإنه لم ينقطع عن المنطقة بشكل عام، فقد ظلت العلاقات التجارية قائمة بين شرق أفريقيا ومدن التجارة الإيطالية كالبندقية وجنوة، المشهورتين بالتفوق التجاري.

في اليمن وصل الإيطاليون إليها لأول مرة مع بداية القرن التاسع عشر قبل الحضور الإيطالي المباشر سياسيا وعسكريا في المنطقة حضرت أولا استخباراتيًا مع بداية القرن التاسع عشر؛ إذ تمكن أربعة إيطاليين من الدخول إلى اليمن بوصفهم أطباء في الجيش الذي أرسله محمد علي باشا 1805 1849م، لحرب الدولة السعودية الأولى، وكانت تلك البداية لدخول الإيطاليين إلى المنطقة. وقد عرف الإيطاليون حقيقة اليمن قبل غيرهم، وتعرفوا على أسرارها وثرواتها، ومن أوائل الإيطاليين «لوريكو فارتينا» الذي يُعد أول مغامر أوروبي دخل إلى اليمن، وصولا إلى عدن، ومن ثم سجن فيها لفترة ثمانية أشهر، وسافر فيما بعد

إلى صنعاء، ثم اتجه جنوبا ليصل إلى تعز، ومنها إلى زبيد، حتى وصل إلى البحر الأحمر، ومن ثم انتقل إلى إيطاليا، ثم ألف كتابا عن اليمن.[1]

وكغيرهم فقد طمع الإيطاليون بالموانئ والجزر اليمنية، خاصة بعد سيطرتهم على الضفة الغربية الجنوبية للبحر الأحمر سنة 1870م، متقاسمة النفوذ في الحبشة مع بريطانيا.[2]

بعد الحرب العالمية الأولى عزمت إيطاليا على غزو اليمن، لكي تقوي مواقعها في إرتيريا، وبهدف تسهيل تغلغلها اللاحق في أثيوبيا. وطمعت في السيطرة على كل من ميناء الحديدة في اليمن، ومصوع في إرتيريا، الواقعين على ساحل البحر الأحمر، فيكون لديهم بذلك أهم المواقع الاستراتيجية المؤدية إلى المحيط الهندي، ولم تكن المنطقة الأخيرة في مخططاتهم، احتلال جزر فرسان، الواقعة على شاطئ عسير؛ بل كان في حسبانهم أيضا الحصول على أفضل المواقع الاقتصادية، وذلك في حالة ما إذا تمكنوا من جعل كل التجارة اليمنية تمر من خلال ميناء مصوع، كما وضعت إيطاليا في حسبانها استخدام مواقعها في اليمن في الفترة التي سبقت اندلاع الحرب العالمية الثانية، كورقة في سياستها الخارجية.[3]

---

1 العلاقات اليمنية الإيطالية خلال الفترة 1919م 1939م، د. أحمد العرامي، 369.

2 انظر: أمن الممرات المائية، سابق، 43.

3 تاريخ اليمن المعاصر، 1917 1982م، تأليف مجموعة من المؤلفين السوفيت، ترجمة: محمد علي البحر، مكتبة مدبولي، 36.

وفي الثاني من سبتمبر 1926م تم التوقيع في صنعاء على اتفاقية الصداقة والتجارة اليمنية الإيطالية، ولمدة عشر سنوات، وبموجب هذه الاتفاقية اعترفت إيطاليا بالاستقلال الكامل لليمن، وتعهدت بتقديم المساعدة الاقتصادية العسكرية لليمن، عن طريق إرسالها للخبراء وبيعها الأسلحة ومختلف المعدات البحرية، وبالمقابل حصلت إيطاليا على حق تجارة البن اليمني في الخارج، وعلى تسهيلات في مجال تزويد اليمن بالنفط لمدة خمس سنوات. وبهذه الخطوة تكون إيطاليا قد حققت بعض التوسع في مجالات جديدة، مثل الشاطئ العربي المواجه لمستعمراتها الأفريقية. وبالأحرى ومن وجهة نظرها فإن عقد المعاهدة مع الإمام يُعد الخطوة الأولى المهمة في تاريخ توسعها في جنوب غرب الجزيرة العربية؛ إذ تعمل من أجل ذلك منذ أمد بعيد.[1]

وقد علقت صحيفة «الدايلي تلجراف» البريطانية على هذه المعاهدة بالقول: إن السنيور جاسباريني تمكن من عقد معاهدة اقتصادية مهمة مع الإمام يحيى، حصلت بها إيطاليا على مزايا اقتصادية مهمة، وعقدُ هذه المعاهدة يتوج المساعي العديدة التي جعلت إيطاليا تبذلها بصبر وتؤدة منذ ثلاث سنوات للحصول

1 تكوين اليمن الحديث، اليمن والإمام يحيى، 1904 1948م، د. سيد مصطفى سالم، ط:4، 1993م، 305.

على موطئ قدم في اليمن، فهذا العمل جزء من سياسية التوسع الإيطالي في البحر الأحمر وغيره.[1]

رحلة مانزوني

في العام 1877 1878م كانت رحلة الصحافي والمصور الإيطالي رينو مانزوني[2]، مصطحبا معه كاميرا التصوير وأدوات التحميض، وهي أول كاميرا تدخل اليمن، وقام بثلاث رحلات داخل اليمن، الأولى كانت من عدن، قعطبة، السَّدة، ذمار وصنعاء. استمر فيها ثمانية أشهر، فيما بين: سبتمبر 1877 إلى ابريل 1878م. الرحلة الثانية انطلقت من عدن في اتجاه الشريط الساحلي للبحر الأحمر عبر المخا والحديدة ثم مناخة وصنعاء، وهي الأطول، حيث استمرت من ابريل 1878 إلى يناير 1879م. الرحلة الثالثة، وهي أقصرها، كانت ثلاثة أشهر حول عدن والمناطق المحيطة بها. وكانت إجمالي هذه الثلاث الرحلات الداخلية ثلاث سنوات، دوّنَ مشاهدها وأخبارها في كتابه الذي نشره لاحقا عام 1884م باسم «اليمن، ثلاثة سنوات في العربية

1 صحيفة الأهرام المصرية، عن الدايلي تلجراف البريطانية، العدد: 15106، بتاريخ 30/ 9/ 1926م، ص: 3. وأيضا تكوين اليمن الحديث ص 306.

2 رينزو مانزوني، من مواليد عام 1852م، في عائلة مرموقة، وهو حفيد الكاتب الإيطالي الكبير "اليسداندرو مانزوني" أحد كبار أقطاب الأدب المعاصرين في إيطاليا. وكان "مانزوني" خبيرا في عدة ميادين، مثل الجغرافيا والعلوم النباتية، وعلوم الشعوب، كما كان يجيد اللغة العربية وفن الرسم والتصوير ورسم الخرائط.

السعيدة». وعرف فيما بعد في الأوساط الثقافية باسم «كتاب مانزوني». وتارة يُشار إليه باسم «رحلة مانزوني».[1]

والكتاب ممتع بأسلوبه، مدهش بمواضيعه التي تناولها، إنما باستقراء الرحلة سياسيا، نجد أنها إلى جانب كونها علمية، ثقافية، فهي أيضا سياسية؛ يتضح ذلك من خلال طبيعة هذه الرحلات بجغرافيتها الحساسة، وأيضا من خلال طبيعة نفسيته الإيجابية التي استطاعت تحمل بعض الصدمات غير المألوفة له، وبعض المواقف التي فيها من المشقة ما فيها.

ومما يؤكد رأينا هذا الرحلة الأخرى التي تبعتها عام 1883م للأخوين «لوجي» و «جيوسيبي»؛ إذ كانا يمثلان شركات تجارية إيطالية، وفي أثناء تواجدهما في صنعاء كانت الحديدة تستقبل ممثلين لشركات تجارية إيطالية أخرى.[2]

وعلى الرغم من أن ظاهرَ المهمة التي يقومان بها تتعلق بالاستيراد والتصدير فإن الأصل في المهمة هو جمع معلومات عن اليمن ونشاط بريطانيا السياسي والعسكري في المنطقة.[3]

والخلاصة أن إيطاليا كانت حاضرة بقوة في مجال البحر الأحمر عبر ضفتيه الغربية والشرقية، وكان اهتمامها باليمن كثيرا، عقب الحرب العالمية الأولى، ولولا خروجها منهزمة في

---

1 انظر: اليمن رحلة إلى صنعاء، رينزو مانزوني، الصندوق الاجتماعي للتنمية، صنعاء، ط:1، مارس، 2011م، 14.

2 العلاقات اليمنية الإيطالية خلال الفترة 1919م 1939م، سابق، 369.

3 اليمن والغرب 1571 1962م، إيرك ماكرو، ترجمة د. حسين العمري، دار الفكر العربي، دمشق، ط:2، 1987م، 131.

الحرب العالمية الثانية ضمن دول المحور لكانت توسعت أكثر، بالقوة العسكرية إلى جانب الدبلوماسية؛ كون البحر الأحمر يمثل لها شريانا مهما في التجارة وفي الحفاظ على المكاسب السياسية لها في شرق أفريقيا، علما أن العلاقة بين إيطاليا واليمن قد بدأت تسوء من أواخر العشرينات بسبب رداءة وارداتها إلى اليمن، وعدم صلاحية أسلحتها التي باعتها للإمام، وأثبتت الوقائع أنها لم تكن تقصد بذلك التقارب والزيارات إلا التغلغل في الضفة الشرقية للبحر الأحمر، لمناوءة خصمها السياسي والاقتصادي آنذاك بريطانيا التي عملت على إخراجها لاحقا، ولم يكن اهتمامها بالبحر الأحمر فحسب؛ بل حتى بالبحر العربي المطل على الشطر الجنوبي من الوطن، والذي تسيطر عليه بريطانيا، بمساحة أطول من الشريط الساحلي على البحر الأحمر، لكنها لم تكن تطمع بالحضور فيه كثيرا، كما كانت تطمع بحضورها في البحر الأحمر، كون شواطئه شبه سائبة، وغير مسيطر عليها، وهي عرضة للاستغلال والسيطرة، بحكم تفكير أئمة صنعاء المتعاقبين على الحكم الذين كانوا يركزون جل جهودهم على المركز أكثر من الأطراف، ولا يهتمون بالأطراف إلا بمقدار ما تدر عليهم من أرباح مالية فقط.

الأطماع الألمانية في اليمن

تعود الأطماع الألمانية في اليمن إلى ما قبل 400 سنة، وتحديدا إلى العام 1606م، عندما زار «هانس فيلد» من مدينة «نورن بيرغ» الألمانية الساحل اليمني، مستطلعًا طبيعته

وخصائصه؛ لينشر في 1613م كتابًا تضمن انطباعاته عن الزيارة؛ علما أنه في العام 1608م كان قد ظهر بمدينة «لايبريغ» الألمانية كتابٌ آخر باللغة الألمانية سجل انطباعات أحد الرحالة الاستكشافيين الايطاليين للأوضاع الداخلية اليمنية، وقد كان لهذين الكتابين دور كبير في عكس صورة واضحة عن اليمن وأهميتها، حتى تتالت بعدها الزيارات والرحلات الاستكشافية للجغرافيين الألمان الذين كان لهم الأثر الكبير في التعريف بالحضارة اليمنية.

وسجّلَ الرحالة الألماني الأصل «كريستيان نيبور» الذي وصل الى ميناء اللحية في 29 ديسمبر 1762م البداية الحقيقية للجذور التاريخية للعلاقات اليمنية الألمانية، التي كانت أولى فصولها الدبلوماسية في فبراير 1927م، أي في أثناء فترة حكم الإمام يحيى.

وكغيرهم كان للألمان أطماعهم في أرخبيل «فرسان» في الجنوب الشرقي للبحر الأحمر[1]، وكان هذا الأرخبيل واقعا تحت سلطة الدولة العثمانية، ويبدو أن العثمانيين قد حافظوا عليه بقوة تحت سلطتهم، في الوقت الذي كانت القوى العالمية الغربية تصول وتجول في مياه البحر الأحمر بلا رقيب أو حسيب.

1 أرخبيل فرسان يتكون من 84 جزيرة متناثرة، يتبع المملكة العربية السعودية حاليا، ويبتعد حوالي خمسين كيلو مترا عن مدينة جيزان. وهو من الموانئ المحاذية لميناء اللحية اليمني، وأيضا كمران والحديدة.

وقد تقدمت ألمانيا بطلب إلى الدولة العثمانية في سبتمبر/ أيلول عام 1890م، فحواه تأجير مكان لها في جزيرة فرسان، الواقع ضمن ولاية اليمن آنذاك، يكون مستودعا للفحم الحجري، بغية توفير الوقود لحاجات السفن الألمانية الحربية المتوجهة إلى الصين، مشيرة إلى أنها سوف تدفع الرسوم المقررة عليها، وأنها ستتقيد بأنظمة الدولة العثمانية.[1]

وعلى الرغم من العلاقة الحميمية والقوية بين الدولة العثمانية وألمانيا حينها فإن الدولة العثمانية اعتذرت عن هذا الطلب، عارضة بدائل أخرى للألمان، إذ أفاد وزير الخارجية العثماني أنهم مستعدون لتزويد السفن الألمانية بالوقود من جزيرة كمران، القريبة نسبيا من جزيرة فرسان، أو من ميناء بور سعيد، الواقع على البحر الأبيض المتوسط؛ حيث يوجد به مستودعات للفحم الحجري، ومن الممكن أيضا أن تقدم الوقود للسفن الألمانية بسعر دون السعر الحقيقي، تقديرا للصداقة بينهما. وتكرر الإلحاح الألماني مرة ثانية على العثمانيين، لكن العثمانيين تصلبوا تجاه الطلب، على الرغم من تلويح السفير الألماني للعثمانيين بأن هذا الرفض سوف يسيء للعلاقة الحسنة بين البلدين. ومع هذا أصر العثمانيون على موقفهم، مبدين رغبتهم باستمرار الصداقة بين البلدين.[2]

---

1 انظر: سهيل صابان، المجلة الأردنية للتاريخ والآثار، المجلد الرابع، العدد 3، 2010م، 133.

2 نفسه. 134.

ومع هذا التصلب فقد عمد الألمان إلى تجاوزه، متخذين عدة خطوات عملية لاستغلال جزر فرسان، وواضعين العثمانيين أمام الأمر الواقع، ومن هذه الخطوات:

1. إرسال سفينة شحن ألمانية محملة بالفحم الحجري إلى جزيرة فرسان في نفس الشهر.
2. بناء مرسى من الأخشاب في الجزيرة وتخزين الفحم الحجري فيه.
3. توجه عدة سفن ألمانية حربية ونقلية إلى الجزيرة.
4. قيام الألمان بالكشف عن منابع النفط في جزيرة فرسان.
5. وضع علامات إرشادية بحرية بجوار جزيرة فرسان.
6. قيام الضابط الألماني «غرانول» بالتوجه مع سفينة ألمانية إلى ذي حراب مع عشرة أفراد من العساكر وتنصيب خيمة فيها، وأيضا تثبيت العلم الألماني، مفيدا أنه مُرسَل من قبل حكومته، ولن يغادرها.
7. قيام الألمان ببناء برج بجزيرة «ذي حراب» الواقعة في جنوب غرب فرسان، والخالية من السكان.
8. توجيه سفينتين ألمانيتين حربيتين قادمتين من الشرق الأقصى إلى فرسان و «ذي حراب» للاطلاع على مراحل بناء المستودع في الجزيرة.[1]

1 نفسه، 137.

وقدد أبرق العثمانيون إلى الألمان، منددين بهذا التجاوز، وفي نفس الوقت عملوا على توجيه القيادة العسكرية باليمن بتوفير قوات عسكرية في الجزيرة عبر ميناء اللحية، ليس ذلك فحسب، بل أرسلت الدولة العثمانية الأوامر اللازمة إلى قيادة الجيش السابع في اليمن بإرسال عدة مدافع، لوضع الاستحكامات اللازمة في الجزيرة، بناء على أهميتها الاستراتيجية البالغة. وقامت القوات العثمانية بإزالة كل العلامات التي وضعها الألمان. كما بدأت السلطات المحلية العثمانية في البحر الأحمر بمراقبة سائر تحركات السفن الألمانية القادمة إلى المنطقة، وليس إلى فرسان فحسب.[1]

الأطماع السوفيتية في اليمن

كانت اليمن محل أطماع القطبين العالميين الغربي والشرقي في أثناء فترة ما عرف بالحرب الباردة؛ فقد دعم الاتحاد السوفيتي جمهورية اليمن الديموقراطية الشعبية، «الجنوب» عقب رحيل البريطانيين منها في نوفمبر من العام 1967م، وأسس فيها واحدة من أكبر القواعد العسكرية الحربية «قاعدة العند» التي أخذت شهرة عسكرية كبيرة، نظرا لحجم التسليح المهول فيها، ولجغرافية المكان الحصين والمعد بإحكام. وكان يهدف من ذلك إلى استكمال السيطرة على الشريط الساحلي لمنطقة غرب

1 نفسه، 140.

البحر الأحمر، وأيضا على خليج عدن، للتحكم بمضيق باب المندب، ومن ثم السيطرة على طرق التجارة العالمية.

ويرجع اهتمام السوفيت بموانئ المياه الدافئة على البحر المتوسط والبحر الأحمر والمحيط الهندي إلى أيام القيصر بطرس الأكبر 1682 1725م، ففي وصيته المنشورة عام 1775م كتب بطرس يحض خليفته على التحرك جنوبا إلى القسطنطينية «البوسفور» والخليج العربي والهند، معلنا أن من يسيطر على تلك المناطق يحكم العالم. هكذا عمل الروس، ومنهم الزعماء السوفيات الذين حكموا بعد ثورة 1917م الشيوعية، على مواصلة سياسة الامتداد جنوبا، وقد أوضحت كتابات الأميرال سيرجي غورشكوف مدى حاجة السوفيات إلى تسهيلات البحر الأحمر في الخمسينيات والستينيات، وبخاصة بعد إدخال الولايات المتحدة الأمريكية الغواصات النووية إلى المنطقة.[1]

وكغيره من القوى العظمى حينها استطاع الاتحاد السوفيتي السيطرة على بعض المفاصل المهمة على ضفتي البحر، كعدن وسقطرى وقاعدة التواهي في اليمن الجنوبي سابقا، وعصب ومصوع على الساحل الارتيري، وأيضا في أرخبيل جزر دهلك، ضَمِنَ له هذا التواجد حرية الحركة وانسيابها عبر أهم المضايق المائية، كمضيق البوسفور والدردنيل التي تربط البحر الأسود بالبحر الأبيض، وقناة السويس التي تربط البحر الأبيض

---

1 البحر الأحمر والصراع العربي الإسرائيلي، سابق، 141.

المتوسط بالبحر الأحمر، وباب المندب الذي يربط البحر الأحمر بالمحيط الهندي.[1]

الأطماع الأمريكية في اليمن

تعود أول علاقة للأمريكيين باليمن إلى العام 1785م، حيث وصلت أول سفينة تجارية أمريكية إلى السواحل اليمنية، لتجارة البن، وأيضا لنقل التجارة من الشرق إلى الغرب، منافسة بذلك بريطانيا "فقد افتتح هؤلاء التجار الأمريكيون لأول مرة خطا تجاريا مباشرا بين البحر الأحمر وشرق أفريقيا، ويمتد هذا الخط حتى يصل إلى أمريكا، وقد شكل ذلك منافسة خطيرة للبريطانيين، خاصة بعد أن سيطر الأمريكيون على تجارة البن اليمني بوجه خاص في مطلع القرن التاسع عشر".[2] ومن يومها تواصل حضورهم ولا يزال إلى اليوم؛ إذ تعد الولايات المتحدة الأمريكية هي المسيطر الأول تقريبا على البحر من خلال قواعدها العسكرية هناك، ومن منطلق المبررات التالية:

1. الأهمية الجيوسياسية للبحر الأحمر ومضيق باب المندب، وأيضا البحر العربي، وحجم التجارة العالمية المرتبطة بهذين البحرين، والأمريكية منها على وجه الخصوص.

---

1 صراع القوى العظمى، سابق، 174.

2 عدن والسياسة البريطانية، سابق، 76.

2. أمريكا متعهدة بحماية إسرائيل وتحقيق أمنها الشامل، ومنه أمن البحار وما يتصل به، وانفلات أمن البحر الأحمر من يد أمريكا يعد انفلاتا لأمن إسرائيل وتهديدا مباشرا لمصالحها.

كما أن من ضمن اهتمامات الولايات المتحدة في إطار جهودها للتأثير على منطقة البحر الأحمر قيامها بتزويد بعض دول البحر الأحمر بالأسلحة منذ الخمسينيات، وإذا كان تقديم المعدات العسكرية الأمريكية إلى أثيوبيا قد انتهى في العام 1977م فقد ظل متواصلا إلى السعودية والأردن وإسرائيل، وبعد 1977م قدمت الولايات المتحدة أيضا أسلحة إلى السودان ومصر واليمن الشمالي، مع ذلك بقي الميزان دائما في صالح إسرائيل. هكذا ظلت الأسلحة الأمريكية المقدمة إلى الأقطار العربية محدودة في الكم وفي النوعية.[1]

ولم يكن مبدأ كارتر «التدخل السريع» إلا في هذا الإطار الذي يأتي في سياق حماية المصالح الأمريكية بالتدخل العسكري والمباشر.[2]، خاصة بعد أن برزت أهمية البحر الأحمر من منظور الأهداف الاستراتيجية الأمريكية في الشرق الأوسط، في أعقاب حرب 1973م، حين استخدم النفط العربي كسلاح سياسي، وهو ما أكد للولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا واليابان أهمية منطقة النفط في الشرق الأوسط، وخطر الطرق والممرات

---

1 البحر الأحمر والصراع العربي الإسرائيلي، سابق، 139.

2 أعلنه الرئيس الأمريكي الأسبق جيمي كارتر في 23 يناير 1980م.

البحرية في البحر الأحمر، الأمر الذي وضع المنطقة في دائرة التنافس بين القوى الدولية.

وازدادت أهمية "الجمهورية العربية اليمنية" سابقا لدى الولايات المتحدة الأمريكية حين كانت «جمهورية اليمن الديموقراطية الشعبية» «جنوب اليمن» واقعة تحت النفوذ السوفياتي، العدو الاستراتيجي لأمريكا حينها. وبالتالي فقد شكلت الجمهورية العربية اليمنية خلال فترة الحرب الباردة مسرحا من مسارح المواجهة السياسية بين القوتين العظميين. لا تزال بعض آثارها تتداعى إلى اليوم.[1]

ومع دخول منطقة البحر الأحمر في دائرة الصراع الدولي استهدفت الاستراتيجية الأمريكية يومذاك الحد من النفوذ السوفيتي في المنطقة؛ إذ وضع الرئيس الأمريكي «جيمي كارتر» أول مرة استراتيجية التدخل الأمريكي في المنطقة بالقوة المسلحة في حال تهديد المصالح الأمريكية. وعلى هذا ظهر في التخطيط العسكري الأمريكي ما عُرف بإنشاء «قوات الانتشار السريع» التي خصصت للعمل في الخليج والبحر الأحمر، والتي وضعت بإمرة القيادة المركزية الأمريكية.[2]

---

1 عُرف في اليمن الشمالي ما سميت بحروب المناطق الوسطى خلال فترة نهاية السبعينيات وبداية الثمانينيات، "شرعب، وصاب، عتمة، ريمة، وبعض المناطق المرتبطة بها" بين عناصر الجبهة الوطنية، المدعومة من الجنوب، الموالي للاتحاد السوفيتي، والعناصر اليمنية الموالية لسلطة الشمال وللمملكة العربية السعودية، المرتبطة بالمعسكر الغربي حينها.

2 موسوعة مقاتل من الصحراء، سابق.

وازداد حضور الولايات المتحدة الأمريكية أكثر في اليمن في الألفية الجديدة بعد حادث السفينة «كول» في المياه الإقليمية اليمنية قرب عدن، في أكتوبر سنة 2000م، وعقب ظهور الجماعات الإرهابية «تنظيم القاعدة» وتسلل العديد من عناصرها من مختلف المنطقة إلى جبال اليمن الحصينة وأوديتها المظلمة، وخاصة بعد توحد تنظيم قاعدة جزيرة العرب، واتخاذه من اليمن مقرا له في العام 2009م.

الأطماع الجديدة

في الواقع الأطماع الجديدة امتداد للأطماع القديمة، وما من جديد إلا في الآليات والوسائل والتكتيك فقط، وربما ازدادت هذه الأطماع تكاثرا، مع تكاثر اللاعبين الكبار، ومع تقاطع المصالح، وهذان متزامنان مع حالة الضعف والتراجع التي تمر بها اليمن.

وكما يُقال: ما دام هناك حاكم ومحكوم، فهناك ظالم ومظلوم، وغالب ومغلوب، وما أكثر الشعوب المغلوبة على أمرها، لضعف حكامها وفسادهم أو ارتهانهم لغير أوطانهم!

ثمة لاعبون جدد اليوم على المسرح الدولي، من مختلف الاتجاهات والتيارات، وهو ما يجعل من المناطق السائبة ساحات حرب جديدة، وأخطر هذه الحروب الحرب بالوكالة، إذ لم تعد القوى الكبرى تحارب تقليديا بأسلحتها وجنودها اليوم؛ بل تحارب الشعوب ببعضها البعض، عكس الحروب التي عُرفت

في القرن العشرين، وما قبل القرن العشرين. وتجارب العشرين عاما الماضية من القرن الجديد تؤكد ما نقرره هنا. وهو ما يسمى بحروب «الجيل الخامس».

تحيط باليمن في مياهه الإقليمية اليوم عدة دول، تنتقص من السيادة وتنالُ من الثروة، بصورة فجة، نتيجة الأوضاع التي آلت إليها البلاد منذ العام 2014م، وحتى اليوم، وربما أن الأخطاء المحدقة بالبلاد ستمتد إلى المستقبل، حسبما يلوح في الأفق من مؤشرات.

إلى جانب الأخطاء القادمة من وراء الحدود، متمثلة في الأطماع الاقتصادية والسياسية، ثمة أخطار الحروب التي تجري لدى بعض دول الجوار في الغرب، وخاصة أثيوبيا والحبشة، وسائر القرن الأفريقي، وهو ما يجعل اليمن مهددة بكثير من المشكلات المترتبة على الحروب، كاللجوء للمتضررين من الحروب، والهجرات غير الشرعية، والتهريب، والاتجار بالبشر، والتلوث البيئي البحري والقرصنة والاعتداء على الثروة البحرية، وإلقاء النفايات السامة في مياهنا الإقليمية إلى آخر هذه القائمة، هذا إضافة إلى ما نعانيه نحن بالداخل، من كوارث لا تقل خطورة عن هذه مجتمعة.

المصادر والمراجع

إبراهيم أبو الأنبياء، عباس محمود العقاد، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2012م.

أثر الحضارة اليمنية في تطور القيم الجمالية في المعابد اليمنية القديمة، منال سعد سالم محمد، رسالة ماجستير، جامعة عدن، 2001م.

أشكال الطيور في الفن اليمني القديم، دراسة فنية مقارنة، أدهم عبد الله محمد نجيم، رسالة ماجستير، جامعة صنعاء، 2012م.

اكتشاف جزيرة العرب، جاكلين بيرين، ترجمة: قدري قلعجي وحمد الجاسر، دار الكاتب العربي، بيروت، د.ت.

الإله سين في ديانة حضرموت القديمة، دراسة من خلال النقوش والآثار، جمال محمد ناصر عوض الحسني، رسالة ماجستير، جامعة عدن، 2006م.

الإله عم وآلهة قتبان 700ق. م، 170م، جمال محمد ناصر عوض الحسني، أطروحة دكتوراه، جامعة طنطا، 2012م.

آلهة اليمن القديم الرئيسة ورموزها حتى القرن الرابع الميلادي، دراسة آثارية تاريخية، محمد سعد عبده حسن القحطاني، رسالة ماجستير، جامعة صنعاء، 1997م.

أمن الممرات المائية العربية، حمد سعيد الموعد، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1999م.

أهمية جزر البحر الأحمر في الأمن القومي العربي، جزيرة حنيش الكبرى وتيران وصنافير، دراسة حالة. خالد حماد أحمد عياد، أطروحة دكتوراه، جامعة مؤتة، الأردن.

البحر الأحمر والجزر اليمنية تاريخ وقضية، د. سيد مصطفى سالم، مؤسسة الميثاق للطباعة والنشر، ط:1، 2006م.

البرق اليماني في الفتح العثماني، قطب الدين محمد بن أحمد النهروالي المكي، إشراف: حمد الجاسر، دار اليمامة، الرياض، 1967م.

تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي، د. شوقي ضيف، دار المعارف، ط:11.

تاريخ البحر الأحمر من موسى حتى بونابرت، روجيه جوانت داجنت، ترجمة حسن نصر الدين، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط:1، 2013م.

تاريخ التمدن الإسلامي، جرجي زيدان، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، د. ط.

تاريخ الجنس العربي، محمد عزة دروزة، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط:1.

تاريخ الخط العربي وآدابه، محمد طاهر بن عبدالقادر الكردي المكي، مكتبة الهلال، القاهرة، ط:1، 1939م.

تاريخ العرب قبل الإسلام، عبدالملك بن قريب الأصمعي، تحقيق: الشيخ محمد حسن آل ياسين، منشورات المكتبة العلمية، ط: 1، 1959م.

تاريخ اليمن المعاصر، 1917 1982م، تأليف مجموعة من المؤلفين السوفيت، ترجمة: محمد علي البحر، مكتبة مدبولي.

تاريخ اليمن في الإسلام، د. عبدالرحمن عبدالواحد الشجاع، ط:8، 2013م.

تاريخ حضارة اليمن القديم، زيد بن علي عنان، دار المطبعة السلفية، ط:1، 1396هـ.

تاريخ شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام، عبدالعزيز صالح. القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1990م.

التجارة في موانئ البحر الأحمر في العصر العباسي 132 656هـ، لمى فائق أحمد السامرائي، رسالة ماجستير، جامعة بغداد، كلية التربية، 2002م.

التشريعات في جنوب غرب الجزيرة العربية حتى نهاية دولة حمير، د. نورة بنت عبد الله بن علي النعيم، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 2000م.

تطور الحياة الفكرية لليمنيين القدماء، عبدالرحمن عمر عبدالرحمن السقاف، أطروحة دكتوراه، جامعة صنعاء، 2007م.

تكوين اليمن الحديث، اليمن والإمام يحيى، 1904 1948م، د. سيد مصطفى سالم، ط:4، 1993م.

الجديد في تاريخ دولة وحضارة سبأ وحمير، محمد حسين الفرح، إصدارات وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء، 2004م.

الجزر اليمنية، د. شهاب محسن عباس، مركز عبادي للدراسات والنشر، صنعاء، ط:1، 1996م.

الجزيرة العربية واليونان وبيزنطة، التواصل الحضاري عبر العصور القديمة والوسيط، «مجموعة باحثين»، الندوة العالمية لعلاقات

الجزيرة العربية بالعالمين اليوناني والبيزنطي، جامعة الملك سعود، 2012م.

جغرافية البحار والمحيطات، مهدي محمد علي، دار الكتب للطباعة، جامعة الموصل، ط:1، 1982م.

الحضارات السامية القديمة، سبتينو موسكاتي، ترجمة: السيد يعقوب بكر، دار الرقي، بيروت، 1986م.

الحياة السياسية والدينية في اليمن القديم والحجاز، من القرن الرابع حتى السادس الميلاديين، علي صالح الكهالي، رسالة ماجستير، جامعة عدن، 2002م.

خط الجزم ابن الخط المسند، محمد علي مادون، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ط:1، 1989م.

السياسة الخارجية السعودية تجاه دول منطقة البحر الأحمر، 1964 1974م، سلام داود غزيل، رسالة ماجستير غير منشورة.

صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، أحمد بن علي بن أحمد الفزاري القلقشندي، دار الكتب العلمية، بيروت.

الصراع الدولي في البحر الأحمر بين الماضي والحاضر، أ. د. كريم مطر حمزة الزبيدي، الشركة العربية المتحدة للتسويق والتوريدات، مصر الجديدة، ط:1، 2017م.

الصراع الدولي في منطقة البحر الأحمر وتأثيره على الأمن القومي للجمهورية اليمنية. «رسالة ماجستير» ثابت الأحمدي، مؤسسة أروقة للدراسات والترجمة والنشر، القاهرة، ط:1، 2020م.

الصراع الديني في جنوب الجزيرة العربية من القرن الرابع حتى السادس الميلادي، ذكرى عبدالملك المطهر، رسالة ماجستير، جامعة صنعاء، 2003م.

عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر 1839 1918م، د. فاروق عثمان أباظة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1987م.

العلاقات اليمنية الإيطالية خلال الفترة 1919م 1939م، د. أحمد العرامي.

معالم التاريخ الأوربي الحديث، د. محمد محمود السروجي، مطبعة المصري، الإسكندرية، 1967م.

المعجم السبئي، بيستون، أ. ف، وآخرون، منشورات جامعة صنعاء، ودار نشر بيترز، لبنان، بيروت، 1982م.

المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، د. جواد علي، ط:2، 1993م.

مقدمة ابن خلدون، عبدالرحمن بن خلدون، ضبط وتصحيح ومراجعة: خليل شحادة وسهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 2001م.

ملحمة عن الملك الحميري أسعد الكامل، بيوتروفسكي، م. ب، ترجمة: شاهر جمال آغا، وزارة الإعلام والثقافة، صنعاء، 1984م.

ملوك حمير وأقيال اليمن، قصيدة نشوان بن سعيد الحميري، تحقيق: علي بن إسماعيل المؤيد، إسماعيل بن أحمد الجرافي، دار العودة، بيروت، ط:2، 1978م.

نساء حكمن اليمن، عفت وصال حمزة، دار ابن حزم، بيروت، ط:1، 1999م.

نقوش مسندية وتعليقات، مطهر علي الإرياني، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، ط:2، 1990م.

اليمن الخضراء مهد الحضارة، محمد بن علي الأكوع الحوالي، مكتبة الجيل الجديد، ط:2، 1982م.

اليمن دنيا ودين، عزالدين كشار، د. ت، د، د.

اليمن، رحلة إلى صنعاء، رينزو مانزوني، الصندوق الاجتماعي للتنمية، صنعاء، ط:1، مارس، 2011م.

اليمن في ظل حكم الإمام المهدي، د. محمد علي الشهاري، الجيل الجديد، ط:1، 2009م،

اليمن والغرب 1571 1962م، إيرك ماكرو، ترجمة د. حسين العمري، دار الفكر العربي، دمشق، ط:2، 1987م.

اليمن وحضارة العرب، الدكتور عدنان ترسيسي، دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت.

مواقع إلكترونية ودوريات عامة

ويكيبيديا الموسوعة الحرة، على الرابط:

https://ar.wikipedia.org/w/index.php?title=%D8%A8%D8%A7%D8%A8_%D8%A7%D9%84%D9%85%D9%86%D8%AF%D8%A8&action=edit&section=1

موسوعة مقاتل من الصحراء، على الرابط:

http://www.moqatel.com/openshare/

يمن مونيتور، على الرابط:

http://www.yemenmonitor.com/WriterArchive?aname=%D8%AF.%20%D9%81%D8%A7%D8%B1%D8%B3%20%D8%A7%D9%84%D8%A8%D9%8A%D9%84

صحيفة الأهرام المصرية، عن الدايلي تلجراف البريطانية، العدد: 15106، بتاريخ 30/ 9/ 1926م.

المجلة الأردنية للتاريخ والآثار، المجلد الرابع، العدد 3، 2010م،

مجلة الإكليل، العدد: 28، 2004م.

مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، العدد السادس عشر، 1978م.

مجلة عين للدراسات والبحوث الإنسانية، والاجتماعية، 1998م.

الفهرس

الكتابة عن اليمن وَعِرةٌ مُلتبسة؛ إذ يحارُ المؤرخ والسياسي والمحلل كيف ومن أين يبدأ؟ ولا يعرف كيف ينتهي؛ لأن اليمن مُوغلة في التاريخ أكثر مما عُرِف حتى الآن، ولمّا بعد يُكشف من تاريخها العظيم إلا قشور. وهذا الغنى الحضاري، ربما أحد أسبابه هبة الجغرافيا موقعاً وطبوغرافيا؛ مما خلق تنوعاً في تضاريسها وفي زراعتها وفي مجتمعها وفي ثقافاتهم ولهجاتهم. وموقع اليمن الفريد سمح بالتبادل الثقافي والحضاري مع أفريقيا والهند وأوروبا. كل هذا، على امتداد ألفيات عديدة، أوجد نُظماً سياسية ودولاً وحضارات عظيمة جميعها تركت آثارها في غنى الشخصية اليمنية وتنوعها إلى اليوم.

لذا يكاد يكون فهم المجتمع والسياسة في اليمن نوعاً من فك الطلاسم وحلّ الأحاجي. ولربما أن مؤلف هذا الكتاب من بين أقدر من تلبّس هذا الهمّ وخاض غماره وأبحر بين أمواجه. وليس كتابه هذا هو الأول من نوعه وفي مجاله، فله الكثير من الكتب والأبحاث حول هذا الأمر. ولطالما أتحفنا وفاجأنا في كل إنتاج فكري جديد. وجديد هذا الكتاب يكمن في تشريح نسيج المجتمع وثقافته وتفكيك عوامل السقوط.

د. احمد عبدالكريم سيف المصعبي


9789777517461



